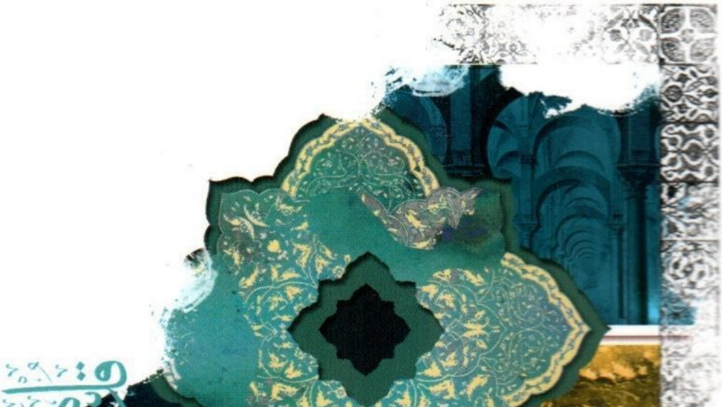
المؤلفات الكاملة

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي



جلاء البصيرة

تقرير: قاسم شبان نيا

ترجمة: علي الهادي مشلب

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

محمد تقي مصباح اليزدي
جلاء البصيرة
دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

جلاء البصيرة

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

تقرير

الشيخ قاسم شبان نيا

ترجمة

علي الهادي مشلب

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-184-2

[٢٠٢٠م – ١٤٤١هـ]

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

العنوان: لبنان – بيروت – سان تيريز - سنتر يحفوفي – بلوك c – ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - mail: almaarf@shurouk.org

تصميم:
زينب ترمس

إخراج فني:
ماجد مصطفى

طباعة:

DPI
Digital Printing International
07762001 - 70743117
dpidigitalprint2020@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ثمن قراءة الكتاب ذكر الصلاة على محمد وال محمد وعجل فرجهم ١٠ مرات بنية تعجيل الفرج

الفهرس

مقدّمة مؤسّسة الإمام الخميني (قدس سره) للتعليمِ والأبحاث

من بينِ جميعِ أسرارِ العالمِ وحاجاتِ البشر، تُعتبرُ الحقيقةُ أشدَّها جمالًا وأقدَمَها أصالةً وأدومَها خلودًا. فكَم من أرواحٍ بَذَلها المؤمنونَ والعلماءُ الصادقون على دربِ هذه الحقيقةِ وفي سبيلِها، وكَم من مؤامرةٍ ودسيسةٍ حاكَتها أيدي الجاهلينَ وعُبّاد الباطِلِ لمسخِ هذه الحقيقةِ ومحوِها. فمَا أمرَّ مظلوميّتَها، وما أحلى انتصارَها الحتميّ المرتقب وخُروجَها مرفوعةَ الرّأسِ، ومحقَ الباطلِ وخروجَه ذليلًا مُطأطئَ الرّأس من هذهِ المعركة المستمرّةِ، أعني معركةَ الحقّ والباطِلِ. وإنَّ مقامَ الحقيقةِ السّامي، بغضّ النّظرِ عن رفعَتِه ورُقيّه الذاتيّين، مدينٌ لجهودٍ خالصةٍ لا مُتناهيةٍ بَذلهَا طالبو الحقيقةِ، الذين شدّوا الرّحالَ وأحكموا الهِمَمَ في الميادينِ النّظريّةِ والعمليّةِ، وحلّقوا خارجَ مكائدِ الدّنيا وملذّاتِها. وهُنا يبرزُ الدّورُ الأساسيُّ والتأثيرُ الأكبرُ الذي رسمتهُ أيدي الأنبياءِ والرّسلِ الإلهيّين، وعلى رأسِهم النبيّ الأكرم ﷺ وآل بيتِه الطّاهرينَ وأوصياؤه بالحقّ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعين.

وقد عـرِفَ علماءُ الشيعةِ الأجـلّاءُ أنّ رِسالتَهم الخطيرةَ التي لا نظيرَ لها هي الانتفاعُ من العقلِ والنّقلِ، والغوصُ في بحرِ المعارفِ القرآنيّةِ، واستخراجُ جوهرةِ الحقيقةِ الصافيةِ النفيسةِ من سيرةِ هؤلاءِ

العِظام عليهم السلام، وتقديمُها للمجتمعِ البشريّ والاستماتةُ في التصدّي لشُبهاتِ أهلِ الظّلامِ الهاربينَ من الحقيقةِ، فأجهدوا أنفسَهُم وأفنَوا أعمارهم. والآنَ، في عصرٍ كسدَت فيه سوق المعنويّات وحثَّ فيه أعداء الحقيقةِ والإنسانيّة سعيَهم في كلّ لحظةٍ للسيطرةِ على البشريّةِ، من خِلالِ صناعةِ ونشرِ ما لا يُعدّ ولا يُحصى من المؤلّفاتِ والمُحاضراتِ، والتوسّلِ بمختلفِ الأسلحةِ المتطوّرةِ الصلبةِ منها والناعمة، باتَت رسالةُ أهلِ الحقيقةِ والمفكّرينَ في ميادين الحوزةِ والجامعةِ، وخاصّةً علماء الدّين، أعظمَ وأخطرَ وأصعبَ. وإنّ للمحقّقينَ الحوزويّينَ في عالم التشيّع سجلًّا ناصعًا في علومِ الفلسفةِ، والكلام، والحديث، والفقه، والأصولِ وغيرها من العلوم، وإنّ تأمّلاتِهم العظيمةَ تشعُّ في سماءِ العلومِ الإسلاميّة. وفي ميدانِ العلوم الطبيعيّة والتجريبيّة والتقنيّات الحديثةِ أيضًا، خطَى علماؤنا خطواتٍ تلفتُ الأنظارَ وتشعُّ أملًا بمستقبلٍ مُشرقٍ، وها هُم يقتربونَ من بلوغِ ما يستحقّونَه على السّاحةِ العالميّةِ، ويسعونَ من خلالِ نشاطاتهم الدؤوبةِ لاستعادةِ مكانتِهم العلميّة في الأوساطِ الدوليّةِ. إلّا أنّ الجُهودَ المبذولَة في ميدانِ العلومِ الاجتماعيّةِ والإنسانيّة لم تصل إلى الحدّ الذي يليقُ بالمجتمعِ الإسلاميّ، وتمّ الاقتصار في هذا المجالِ على الترجمةِ والاقتباسِ من نظريّات الآخرين، فقلّما نجدُ في هذا الميدانِ أثرًا لابتكاراتٍ وإبداعاتٍ مُنبثقةٍ من المبانِي الإسلاميّة. ولا زالَ الطريقُ أمامَنا طويلًا ومليئًا بالتحدّياتِ كي نصلَ إلى المقصدِ المطلوب. ومن هُنا، فبالإضافةِ إلى الاستنباطِ، والاستخراجِ، والتفسيرِ، وتبيينِ التعاليمِ الدينيّةِ، وتنظيمِ المعارفِ الإسلاميّةِ، باتَ البحثُ في مسائلِ العلومِ الإنسانيّةِ والاجتماعيّة من منظارٍ إسلاميّ وتبيينُ هذه المسائلِ من أهمّ أهدافِ وأولويّاتِ المؤسّساتِ العلميّةِ، وخاصّةً مراكزُ الأبحاثِ في الحوزاتِ العلميّة.

وإنّ مؤسّسة الإمام الخمينيّ قدس سره للتّعليم والأبحاثِ منذُ بدايةِ تأسيسها، وعلى ضوءِ تأييدات القائدِ العظيمِ للثورةِ الإسلاميّة، ورعايةِ خلفِه الصالحِ آية الله العظمى السيد علي الخامنئي دام ظله، ووفقَ السياساتِ والأهـدافِ التي رسمها آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي (حفظه الله)، قد أوْلَت اهتمامًا كبيرًا للأبحاثِ العلميّة والدينيّةِ، وعملَت في سبيلِ تلبيةِ حاجاتِ مجتمعنا الفكريّةِ والدينيّةِ من خلالِ طرحِ الأبحاثِ التأسيسيّةِ، التوجيهيّةِ والعمليّةِ. ومن أجلِ تحقيقِ هذا الهدفِ، تسعى مُعاونيّة الأبحاثِ في المؤسّسةِ، بالإضافةِ إلى وضعِ البرامجِ وتوجيهِ الطلّابِ والباحثين، إلى نشرِ مؤلّفاتِ الباحثينَ، وقد استطاعَت بحمدِ الله تعالى أن تقدّمَ للمجتمعِ الإسلاميّ مؤلّفاتٍ قيّمةً ضمنَ حدودِ قدرتِها.

وهذا الكتابُ هو قسمٌ من المباحثِ السياسيّةِ - الاجتماعية للأستاذ العلّامة آية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي (حفظه الله)، والتي عملَ على تقريرِها المحقّقُ الكبير حجّة الإسلامِ والمُسلمين الدكتور «قاسم شبان نيا». الهدفُ الأساسيُّ من هذا الكِتابِ هو عرضُ المباحث السياسيّة التأسيسيّة، والتوجّهِ الإسلاميّ فيما يرتبطُ بالارتقاءِ بالبصيرةِ والرؤيةِ السياسيّةِ في المجتمعِ الإسلاميّ.

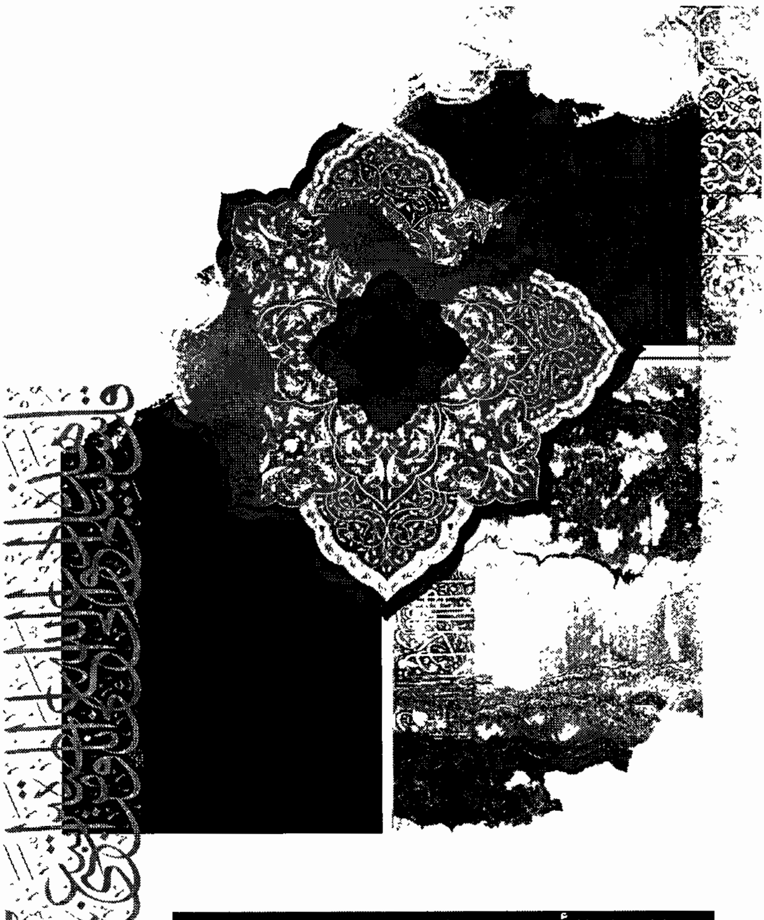
مُعاونيّة الأبحاث
مؤسّسة الإمام الخميني قدس سره للتعليمِ والأبحاث

المُقدّمة

تُعتبرُ مفردة «البصيرة» واحدةً من المفردات والمفاهيمِ التي حازَت الكثيرَ من الأهميّةِ على طولِ تاريخِ الإسلامِ، وقد كانت كذلكَ في تاريخِنا المُعاصِر ولا تزال. وقد استحوذتِ البصيرةُ على تأكيدٍ خاصّ في الثقافةِ الإسلاميّةِ، ومِن جُملتِها القرآنُ الكريمُ وكلماتُ الرسول الأكرم ﷺ وأميرِ المؤمنين عليه السلام والأئمّة الطّاهرين عليهم السلام. وبعدَ انتصارِ الثورة الإسلاميّةِ في إيران نبّهَ الإمامُ الخمينيّ قدس سره وكذلكَ السيدُ القائدُ دام ظله عمومَ النّاسِ على أهميّتها مِرارًا وتكرارًا.

وانطلاقًا من تأكيدِ القائدِ دام ظله على هذه المسألةِ مـرّاتٍ عدّةً، وخاصّةً في خِطاباتِه وبياناتِه بعد وقوعِ الفتن الصّغيرةِ والكبيرةِ، وتحذيرِه الخواصّ والعوامَ من خطرِ فقدانِ البصيرةِ، وانطلاقًا من اعتقادِه دام ظله أنّ منشأَ الكثير من العثراتِ والأخطاءِ والزلّاتِ والمفاسِدِ يعودُ إلى فُقدانِ البصيرةِ، ومن أجلِ صونِ المُجتمعِ الإسلاميّ من هذه الآفاتِ والأخطارِ، كان لا بدّ من التصدّي لهذا البحثِ وطرحِه من زوايـاه المُختلفة. إذ من شأنِ الإدراكِ الصحيحِ لمفهوم البصيرةِ وماهيّتها، وضرورةِ البصيرةِ وأهميّتِها، وعواملِ اكتسابِ البصيرةِ وارتقائها في المجتمعِ، وموانعِ

اكتسابِ البصيرةِ ومعيارِ تحديدِ البصيرةِ ومِلاكِه، من شأنِ كلّ هذا أن يُعالجَ الكثيرَ من المُعضلاتِ والمُشكلاتِ في هذا الميدان.



الفصل الأوّل: تعريف البصيرة وماهيتها

«البصيرة» كلمةٌ عربيّةٌ مشتقّةٌ من «البصر»، والبصرُ هو العين[١]، والإبصار يعني الرؤية والنظر وكذلكَ البصيرةُ. إلّا أنّ البصيرةَ غالبًا ما تُستعملُ في النظرِ الباطنيّ، لا في النظرِ الحاصلِ من العينِ الظاهريّةِ. وليتّضحَ هذا الأمرُ ينبغي أن نتذكّرَ أنّ للإنسانِ، بحسبِ التعاليمِ القرآنيّةِ، حواسًّا باطنيّةً بالإضافةِ إلى حواسِه الظّاهريّةِ الخمسةِ كالعينِ والأذنِ. ومن جملة هذه الحواسِ الباطنيّةِ أنّ للإنسانِ عينًا مغايرةً لتلك الظاهرية تكونُ أحيانًا مبصرةً وأحيانًا عمياءَ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[٢].

فليس المقصودُ من «العمَى» - وفقَ الآيةِ الكريمةِ - فقدانَ البصرِ والعينِ الظاهريّةِ، بل عمَى القلوبِ والحرمانَ من العينِ الباطنيّة. وإنّ ما يوجبُ حرمانَ الإنسانِ من النظرِ والرؤيةِ المعنويّةِ هي الشُّبهاتُ التي تُلقيها الشّياطينُ غالبًا، حيثُ يَحتجبُ عقلُ الإنسانِ وفطرتُه عن الواقعِ بسببِ هذه الإلقاءاتِ، ويبتعدُ عمّا ينبغي لَه من خلالِ الاستضاءةِ بنورِ البصيرةِ الباطنيّةِ. وفي الواقعِ، إنّ الشبهاتِ هذه تُصيّرُ ذهنَ الإنسانِ

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، الجزء ٤، الصفحة ٦٤.

(٢) سورة الحج، الآية ٤٦.

محدودًا، وتغيّرُ من زاويةِ رؤيتِه من خلالِ الحُجُبِ التي توجدُها، بشكلٍ يمنعُ الإنسانَ من إدراكِ الحقيقةِ ورؤيتها كما هي عليه.

ومن هُنا، فإنَّ البصيرةَ في القرآنِ، وإن كانت مشتقّةً من البصرِ بمعنى العينِ، إلّا أنَّها لا تشيرُ إطلاقًا إلى مفهومِ الإبصارِ الظاهريّ الذي يقابلُه العَمى الظاهريّ، ومِن هُنا نرى بعضَ الآياتِ تُصرّحُ بأنَّ لفئةٍ مِن الناسِ أعُينًا ظَاهريّة لكنّهم في الواقعِ غيرُ قادرينَ على الإبصار: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾(١).

وفي آياتٍ أُخرى استعملَ القرآنُ الكريمُ بحقّ بعضِ الأشخاصِ عباراتٍ من قبيلِ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾(٢)، و﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٣).

وتحدَّثت فئة أُخرى من الآياتِ الكريمةِ عن أُناسٍ يُحشرونَ يومَ القيامةِ عُميانًا فيعترضونَ قائلينَ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾(٤)، فيأتيهم الجوابُ: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾(٥).

ونخرجُ من هذه الآياتِ بنتيجةٍ مفادُها أنّ القرآنَ الكريمَ يختصُّ بعضَ الأفرادِ دونَ غيرهم بأنّهم أهلُ بصيرةٍ، وينسبُ إلى الكثيرينَ العَمى وفُقدانَ البصيرةِ. وعليه، فإنَّ لبعضِ الأشخاصِ نَظرًا باطِنيًّا، وبواسطةِ السيرِ والسلوكِ المعنويّ يَصلونَ إلى مقامٍ يُدعى «مقامَ البصيرة».

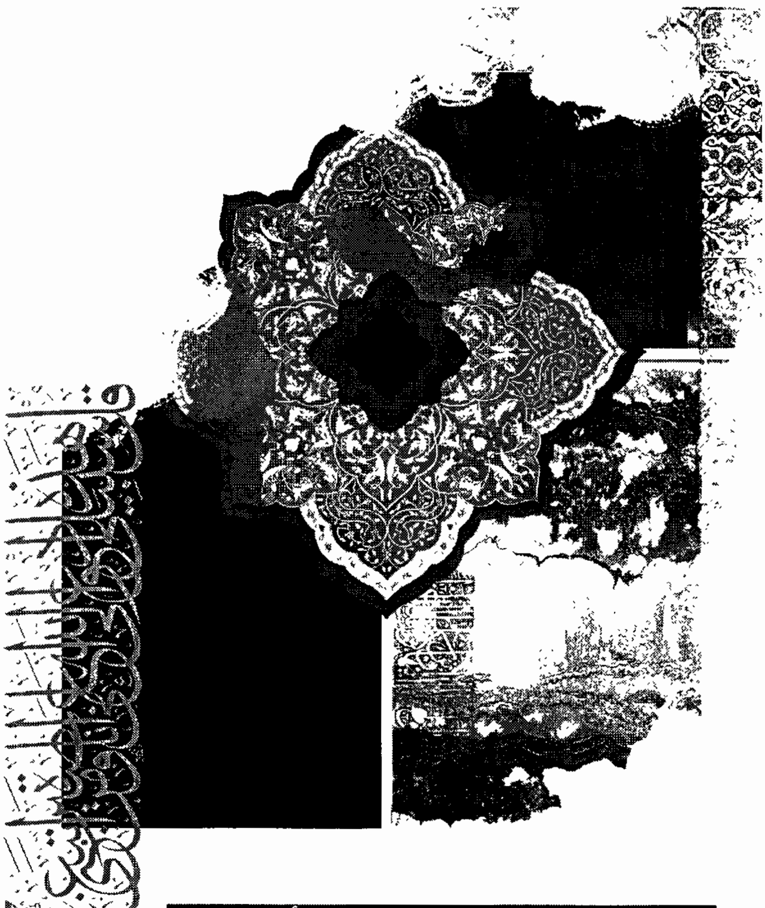
---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٨.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٧١.
(٤) سورة طه، الآية ١٢٥.
(٥) سورة طه، الآية ١٢٦.

بَيد أنّه ينغي الالتفاتُ إلى أنَّ لمفهومِ البصيرةِ في مثلِ هذه المواردِ معنًى أوسع، ولا يختصُّ بمفهومٍ أو مقامٍ عرفانيّ خاصّ. إذ ينبغِي على كلّ إنسانٍ في مسيرِ حياته أن يسعى دائمًا في سبيلِ إدراكِ بعضِ الأمورِ بشكلٍ جيّدٍ، وأن يكتسب نظرةً عميقة تجاه المسائل المحيطة به. فإن نظرَ الإنسان إلى محيطه بنظرة سطحيّة، لن يرتسم في ذهنه سوى صورة مبهمة حول هذا المحيط، لا تسمح له بأن يصدر أحكامًا دقيقة حول مسائل محيطه هذا، فيشتبه حتّى في تعداد الأفراد وتمييز أشكالهم. وكذلك الأمر فيما يرتبط بالمسائل المعنويّة، فقد تكون معرفة الأفراد بالمسائل المعنوية أحيانًا سطحيّة وعابرة ومفتقرة للدقة، والحال أنّ اكتساب الرؤية الصحيحة تجاه هذه المسائل يتوقّف على النظر إليها بنظرةٍ عميقةٍ ودقيقة.

وبناءً عليه، ففيما يرتبط بأفعال الإنسان، التي يحكمها بالضرورة نظامٌ قيمي خاص فيه ما فيه من الوجوب والمنع، إذا ما أراد الإنسان أن يضفي على فعله رداء العقلانيّة ويكون مورد رضا الله، لا محيص له من كسب الرؤية الصحيحة التي تعصمه من أن تشتبه عليه الأمور. ذلك لأنّ الإنسان بطبعه قد يشتبه بين مفهوم وآخر، شخصٍ وآخر، مقامٍ وآخر، بسبب غياب الدقّة وسيطرة النظرة السطحية عليه. وفي النتيجة، يتوجّب على الإنسانُ، كيما يقتدرَ على الإتيان بالفعل المناسب والحركة الصحيحة، واتخاذ الموقف المناسب، فيساند الشخص السويّ ويخالف السيّئ، ويصدر منه الكلام المناسب ويُعرض عن غير المناسب، يتوجّب عليه أن يعرف بدقّة كلَّ الأمور التي من شأنها أن تتَدخّلَ وتؤثّر في عمليّة تشخيصه في الموارد المتقدّمة.

وبتحقّق هذا الشرط يُطلق على الإنسان أنّه «صاحب بصيرة»، وأمّا عندما تسيطر عليه النظرة السطحيّة فتكون منشأ اشتباه صاحبها وخطئه، وتحول دون اختيار الفرد للأمر الصحيح في الموارد المتقدمة، فيطلق عليه أنّه «فاقد البصيرة».



الفصل الثاني: ضرورة البصيرة وأهميتها

تكونُ البصيرة الصحيحة دائمًا منشأً لإدراكِ المسائلِ بشكلٍ عميقٍ، ما يمكنُ من خلالِه الحصولُ على تحليلٍ أفضلَ للوقائعِ والتحوّلاتِ، وإرجاعُها إلى أصولِها وجذورِها بشكلٍ أفضلَ، ومعرفةُ مخاطرِهَا بشكلٍ أدقّ، وفي النهايةِ إيجادُ الحلولِ للمُشكلاتِ والعثورُ على طريقٍ للخروجِ من المتاهاتِ بأقصرِ مُدّة وأقلّ خسائر. وبالالتفاتِ إلى هذا الأمرِ تتّضحُ ضرورةُ البصيرةِ، وخاصّة عند المسؤولينَ في أيّ دولةٍ، إذ إنّ من شأنِ غيابِ البصيرةِ عندَهم أن يُسبّبَ للشعوبِ الكثيرَ من المُشكلاتِ. بل وقد يؤدّي فُقدانُها أحيانًا إلى انحرافِ الأفرادِ ١٨٠ درجة عن المسارِ الصحيحِ. ولذلك كان اعتمادُ الرسولِ الأكرمِ ﷺ في مواجهةِ أعدائه على البصيرةِ دونَ غيرِها: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾[١].

فوفقًا لهذه الآيةِ الكريمةِ فإنَّ دعوةَ النبيّ ﷺ مُبتنيةٌ على البصيرةِ، وليسَ رسولُ اللهِ ﷺ فقط من يمتلكُ هذه البصيرةَ، بل إنّ أتباعَه ﷺ أيضًا هم أهلُ بصيرةٍ، و يدعونَ إلى الله تعالى على وفقِ ما تقتضيه هذه البصيرةُ.

(١) سورة يوسف، الآية ١٠٨.

وفي الحقيقةِ، إنّ اكتسابَ البصيرةِ يمنحُ الإنسانَ نوعًا من المعرفةِ والنورانيّةِ الباطنيّةِ التي يُشخّصُ مِن خلالِها الحقَّ من الباطلِ في الأوقاتِ التي يُسيطِرُ فيها الإبهامُ على المُجتمعِ وخاصّةً في أزمنةِ الفِتن، فلا يقعُ في مكائدِ شياطينِ الإنسِ والجنِ. وعليه فلو اختارَ الإنسانُ طريقًا مُعيّنًا وسلكَه وفقَ بصيرةٍ ورُؤيةٍ، فإنّ العواملَ السلبيّة من قبيلِ الغفلةِ والخطأ لن تتمكّنَ من حَرفِه عن هذا المسيرِ. ومِن هُنا يُؤكّدُ سماحةُ القائد دام ظله على ضرورةِ اكتسابِ القُوى الثوريةِ وحُماةِ قيمِ الثورةِ الإسلاميّةِ للبصيرةِ، ذلك لأنّ العقائدَ والأفكارَ والآراءَ إذا ما ابتنت على الدليلِ الواضحِ والمُحكمِ، فإنّها تحولُ دونَ انحرافِ الأفرادِ بسهولةٍ عن المسيرِ الصحيحِ.

وبالطبعِ، إنَّ البصيرةَ الحقيقيّةَ نورٌ يقذفُه اللهُ تعالى في قلبِ من يشاءُ، إذْ إنّه هو تعالى من يمنحُ نورَ الهدايةِ، ولا يتأتّى لمخلوقٍ أن يظفرَ به ما لم يمنحه الله إيّاه: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1].

إلّا أنّ اللهَ تعالى يفيضُ هذا النورَ على قلوبِ الأشخاصِ الذين يحصّلونَ اللياقةَ والصلاحيّةَ والمقدّماتَ اللازمةَ. ومن جُملةِ مُقدّماتِ الظّفرِ بنورِ الهدايةِ هذا، تطهيرُ القلوبِ من الأدرانِ والانحرافاتِ. وإنَّ ما يسعُنا القيامُ به في سبيلِ اكتسابِ البصيرةِ هوَ تهيئةُ هذه المُقدّماتِ، الأمر الذي لا يحصلُ إلّا من خلالِ تقويةِ الاعتقاداتِ والأفكارِ وإثباتِها عبرَ إقامةِ الأدلّةِ المُحكمةِ. من هُنا ينبغي علينا أن نَسعى جاهدينَ لتجهيزِ أنفسِنا وتسليحِها بالأدلّةِ المتينةِ قبلَ أن يُطلقَ الأعداءُ شُبهاتِهم، كي نتمكّنَ من الإجابةِ عَنها وردّها بسهولةٍ، فلا تتأثّر أفكارُنا واعتقاداتُنا بمجرّدِ قراءةِ مقالةٍ واستماعِ محاضرةٍ فينحرفُ مسيرُنا. وإنّ الافتقارَ إلى البصيرةِ

---

(١) سورة النور، الآية ٤٠.

في مثلِ هذه المواقفِ مُوجبٌ لانخداعِ الناسِ بسهولةٍ واختيارِهم الطريقَ الخاطئ، خاصّةً وأنَّ الشياطينَ لا يألونَ جُهدًا في سبيلِ خداعِ الناسِ وإضلالِهم، من خلال التِرويجِ والتبليغِ الواسعِ لآرائهم وأفكارِهم.

تُروى في هذا الصددِ قصّةٌ مشهورةٌ وهادِفةٌ تحكي عن أثرِ البصيرةِ وأهميّتها في مواجهةِ الشبهاتِ وعمليّاتِ الدعايةِ والتبليغ. حيث يُحكى أنّ عابدًا كان يسكنُ في صومعةٍ مُشتغلًا بالعبادةِ. ولأنّه كانَ يسكنُ الصحراء دون أيّ إمكانات، فإنه كان يعتمد في غذائه على لبن الخِرفان التي كان يمتلكها. وفي أحد الأيّام أخرج خرفانه فوقعت عين قطّاع الطرق عليها، فصمّموا على أخذها منه مهما كلّفهم الأمر، فجاء أحدهم إلى العابد وقال له بعد التحية: «أليس من القبيح لشخص في مثل مقامك المعنوي أن يخرج بصحبة خنزير؟»، فأجابه العابد متعجّبًا: «خنزير!! ليس لديّ أيّ خنزير، إنّها خِرفان». فقال له قاطع الطريق: «كلّا سيدي، إنّها خنازير». إلّا أنّ العابد لم يصغ لكلامه ولم يعره أيّ اهتمام. ومن ثمّ جاءه الرجل الثاني وأعاد ما ذكرَه صاحبه، إلّا أنّه واجه نفس الإنكار من العابد. ومن بعدها جاءه الثالث أيضًا ودار بينهما نفس الحوار. عندها تأمّل العابد وخاطب نفسه قائلًا: «لقد أتى هؤلاء الرجال الثلاثة كلٌّ على حدى، وقالوا أن معي خنازير. فلعلّ ما معي هي خنازير وأنا مشتبه!!». وسرعان ما وقع تحت تأثير كلامهم هذا وأطلق خرفانه بعيدًا، فاغتنم قطّاع الطريق الفرصة وأمسكوا بها من دون عناء أو جهد أو مشاجرةٍ مع العابد.

ومن هنا، فإنّ الشياطين على الـدوام في سعيٍ حثيث من أجل ترويج تلك الأفكار الموافقة والمطابقة لمنافعهم بين الناس، مستفيدين من مختلف سبل التبليغ والدعاية. وفي مثل هذه الحالات، يتأثّر الذين لا يمتلكون الفكر العميق. وإنّ سياسة الشياطين في نشر ضلالهم تعتمد

على تكرار إلقاء أفكارهم بين الناس، بصورة محاضرات ومناظرات وكتب ومجلّات ومقالات وأمثالها، كي تتغلغل تدريجيًّا في أعماق المجتمعات. ولهذا نراهم على إثر هذه التبليغات قد وضعوا أوضح الأمور التي نتيقّن بها في ثورتنا المباركة في معرض التشكيك. وإنّ بعض هذه التشكيكات والترديدات يثيرها أشخاص من ذوي المناصب في الجمهورية الإسلامية أو من المؤلفين والكتاب المهمّين في الجمهورية، أو حتى ممّن كان لهم سابقة مهمة في مواجهة النظام الطاغوتي أيّام الثورة، الأمر الذي أدّى إلى إيجاد ترديد كبير عند ذوي النظرة السطحية للمسائل المحيطة بهم. وهذا ما نراه أيضًا في صدر الإسلام، حيث إنّ عديمي البصيرة عندما رأوا بعد ارتحال رسول الله ﷺ أنّ والد زوجته قد سيطر على الأمور واستأثر بالسلطة، ومن ثمّ والد زوجته الأخرى، ومن بعده بعض أقاربه كأولاد عمّه، وأزاحوا أمير المؤمنين عليه السلام جانبًا، لم يحرّكوا ساكنًا، بل وقعوا تحت تأثير تلك الشخصيّات وتركوا أمير المؤمنين عليه السلام وحده أيضًا. ولذلك يُقال: «إنّ عُمدة الذنوب ذنوب الخواص»، ذلك لأنّهم إن سلكوا طريق الضلال، سيحذوا الآخرون حذوهم، ويحسبونهم المِلاك في تشخيص الحق من الباطل.

ويمثّل هذا الأمر حقيقةً نفسيّةً وتاريخيّةً واجتماعيّةً قد تكررّت مرات عدة في المجتمعات المختلفة. وعلى مدى سنوات عمر الجمهورية الإسلامية المبارك، كان هناك نماذج كثيرة لهذه الحقيقة، وقد رأينا مرارًا وتكرارًا مثل هذه الانحرافات من بعض الشخصيات من ذوي المناصب والمسؤوليات المختلفة. ومن طرق مواجهة هذه الانحرافات المهلكة والخطرة تقوية معتقداتنا من خلال نصب الأدلّة الواضحة. ومن خلال سلوك طريق المواجهة هذا نصل إلى جوهرة «البصيرة».



الفصل الثالث: عوامل اكتساب البصيرة وارتقائها

أ. تقوية الاعتقادات الدينيّة

إنّ البصيرةَ عنصرٌ يتحقّقُ في الإنسانِ بتحقّقِ عامَلين: العاملُ الأوّل هو المعرفة، والعاملُ الثاني هو العمل، أي لا بدَّ على الإنسانِ من أجلِ اكتسابِ البصيرةِ أن يكتسبَ المعارفَ الصّحيحةَ أوّلًا، وأن يعملَ بما تقتضيه هذه المعارفُ ثانيًا. وفي هذه الصورة يتحقّقُ في الإنسانِ نوعٌ من النورانيّةِ القلبيّةِ وانشراحِ الصّدرِ والاطمئنانِ القلبيّ، وهذه هي البصيرةُ التي نبحثُ عن تحقيقِها. وعليه، فبالإضافةِ إلى المعرفةِ لا بدّ أيضًا من بِناءِ النفسِ حتّى تحقّقَ البصيرةُ.

في ميدانِ المعرفةِ، لا بدَّ من الالتفاتِ إلى أنّنا إذا تعاملنا بسطحيّةٍ في مواجهةِ المسائلِ المحيطةِ بنا، فإنّنا، وبسبب ضعفِ اعتقاداتنا، سنسقطُ بسهولةٍ في مكائدِ الشياطينِ. أمّا إنْ أعَرنا اهتمامًا أكبرَ لتقويةِ المعتقداتِ، وتمكّنَا بواسطةِ الاستدلالِ من ردّ الشّبهاتِ، فإنّنا لن نسقطَ أبدًا في مثلِ هذه المكائدِ. ومن هنا، ينبغي علينا إحكامُ اعتقاداتنا من خلالِ الاستفادةِ من التجاربِ العينيّة والعقل، والاستقاءِ من تعاليمِ القرآنِ الكريمِ والأنبياءِ الإلهيين عليهم السلام والأئمّةِ الأطهارِ عليهم السلام. وإذا ما أردنا لنبتةِ الإيمانِ أن تنموَ في أنفسنا، فلا بدّ لجذورِها العميقةِ أن تتجذّرَ وتنتشرَ

في تربةِ قلوبِنا، فلا يتأتّى لأحدٍ أن يُضعِفَها بمحاضرةٍ أو مقالةٍ أو شريطٍ تصويريّ.

يوجدُ في أيّامِنا هذه أُنَاسٌ يعملون ليلَ نهار على سلبِ الإيمانِ من شبابِ هذه الأمّةِ مهما كلّفهم الأمر. وقد أكّدَ سماحةُ القائدِ دام ظله مِرارًا على أنّ العدوَّ قد جعلَ من إيمانِ شبابِنا هدفًا له[1]. لذا، فلكي تستقيمَ وتثبُتَ هذه النبتةُ في تربةِ قلوبِنا، لا بدَّ من سقيها عبرَ تقويةِ اعتقاداتنا.

فإن كانَ الهدفُ من قيامِ الثورةِ الإسلاميّةِ تَحقُّقَ حاكميّةِ الدين في المُجتمع، فلا بدّ من أجلِ الوُصولِ إلى هذا الهدفِ من إبقاءِ العقائدِ الدينيّة حيّةً. وإنّ تحقّق سعادةِ الإنسانِ في دنياهُ وآخرتِه مرهونٌ بإيمانه واعتقاداته الدينيّة، التي تتطلّبُ اهتمامًا دائمًا وتقويةً مستمرّةً كي تبقى سالمةً. فكما أنّ الإنسانَ في حياتِه يصرفُ سَهمًا من وقتِه لعملِه، وعائلتِه، وراحتِه، وتفريحِه، وزياراتِه، وأمورٍ أخرى من هذا القبيل، فيَنبغي عليه أيضًا أن يُخصّصَ سهمًا لتقويةِ إيمانِه. ولا بدّ أيضًا من أن نسعى كي لا نقعَ تحتَ تأثيرِ المباحثِ التشكيكيّةِ التي تُطرحُ بغرضِ إضعافِ الاعتقادات الدينيّة، وكي نصلَ بأيّ ثمنٍ إلى اليَقينِ في أصولِ الدين الثلاثة - أي التوحيد والنبوة والمَعاد - لئَلّا يؤدي الشكُّ والشبهاتُ إلى إيجادِ أيّ خللٍ في اعتقادنا، وإلّا فإنْ كانت نظرتُنا إلى هذه الأصولِ سطحيّةً فإنّنا على الدوام في معرضِ السقوطِ والتعثّر.

وبناءً عليه، فإن كنّا من المعتقدين بضرورةِ بقاءِ الإسلام، وأنّ للإسلامِ حكومةً قِوامُها الإمامُ المعصوم عليه السلام في زمن حضورِه والوليُّ الفقيه في زمنِ غيبته، فلا منَاصَ لنا من السعي في سبيلِ فهمِ هذه المباني

---

(١) لقاء سماحة القائد دام ظله برئيس الجمهورية الإسلاميّة وأعضاء الهيئة الحكوميّة بتاريخ ٢/ ٨/ ١٩٩٨ م

والمعاني حقّ الفَهم والاعتقادِ بها حقّ الاعتقاد، وإلّا فإنَّ احتمالَ مواجهةِ نفسِ المصيرِ الذي واجهَه أولئك الذين ضلّوا الطريقَ عند الابتلاءاتِ الصعبةِ هو احتمالٌ موجودٌ في كلّ زمان، وإنّ خروجَنا مرفوعي الرّأس من مَعتركِ الشدائدِ والفتنِ والابتلاءاتِ مرهونٌ باستحكام مبانينا الفكريّة. فيجب أن يُعمَل بجدّ على تقويةِ هذه المباني الفكريّة في المراكزِ العلميّة، والمساجد، والمجالس الدينيّة، وسائر المراكز المرتبطة.

ولا يَنبغي لأحدٍ أن يتصوّر أنّ هذه الاعتقادات الدينيّة هي إرثٌ لا يتطلّب الحصولُ عليه جُهدًا وكَسبًا، بل إنّ الهدفَ من الحياة في هذه الدنيا أساسًا هو الوصولُ إلى هذه المعارف. نعم، من الطبيعيّ أنْ يتعذّرَ على كلّ إنسانٍ أن يبلغَ أعلى مراتب المعرفةِ؛ إذ يُمكنُ تصوّرُ مراتبَ مختلفة من المعارفِ بحسبِ استعداداتِ الأفـراد. وقد يكونُ لظروفِ الحياة عندَ كلّ شخصٍ أثرٌ في حصول التفاوت في مراتبِ المعرفةِ هذه، فلدينا مثلًا الشابُّ الصغير والشيخُ الكبير، ذو التجربةِ الكبيرة والمفتقرُ إلى التجربة، المتخصّصُ في مجالٍ معيّن وغيرُ المتخصّص، لذا فإنّ مراتبَ المعرفةِ ستتفاوتُ شئنا أم أبينا. من هنا نجدُ أنفسَنا في بعض المواردِ مضطرّين للاستفادةِ من معارفِ الآخرين. بالتأكيد إنّنا كلَّما ارتقينا بمعارفنا الخاصّةِ كان هذا أفضل، إلّا أنّه من الواضحِ أنّ ظروفَ الحياةِ لا تسمحُ للجميع بأن يكونوا متمكّنين من كل أبعاد معرفة الإسلام ومسلّطين عليها، وأن يُدركوا جيّدًا كلَّ الموضوعات، والمسائل السياسيّة، ودسائسَ الأعداء وما شابه.

ولقد أعانَنا اللهُ تعالى كثيرًا في هذه المواردِ إذْ أكرمَنا بولايةِ الفقيه. فبفضلِ وجودِ ولايةِ الفقيهِ هذه، فإنّنا على أقلّ تقدير نكونُ معذورينَ بلحاظِ الحكمِ الظاهريّ، فلو افترَضنا أنَّ القائدَ دامَ ظلّه قد اشتبه في أمرٍ

ما، فإنّنا - أي التابعين له - معذورون في ذلك. وإنّنا لَنعلمُ يقينًا أنّه لم يُقصّر، بل إنّ الأمرَ كان قُصورًا منه ولذلك فهو أيضًا معذورٌ في خطئه. وهنا تكمُن أهميّةُ ولايةِ الفقيهِ بالنسبةِ لنا، فإنْ أخطأت معارفُنا وجانبت الصوابَ فإنّنا في مأمنٍ من العذاب. وفقط في موردٍ واحدٍ من الممكن للعذابِ أن يَحلَّ وهو فيما لو كان الوليّ الفقيه مقصّرًا ومتعمّدًا إضلالَ الناس، وهذا الأمرُ قريبٌ من المُحال إذ لا يَردُ هذا الاحتمال بحقّ الوليّ الفقيه صاحبِ العدالةِ والتقوى والذي اختبرَ الناسُ تجربةَ عدالته لحدودِ الأربعين عامًا. وحتّى أنّه قد أثبتَ أنّه وإن افتُرِضَ صدورُ الخطأ منه، إلّا أنّ خطأه هذا لا يُمكنُ أن يقاسَ بأخطاءِ غيره الكثيرة. هذا وإنّ لطفَ اللهِ بعبادِه المُخلِصين الذين وَهَبوا كلَّ ما لديهم فداءً للإسلام يقتَضي أن يهديَهم اللهُ في المواردِ كثيرةِ التعقيد ويحولُ دونَ وقوعِهم في الخطأ، ولكن على فَرضِ صُدورِ الخطأ منه، فإنّنا على الأقل نكونُ قد امتثلنا لتكليفنا الظاهريّ ولسنا مسؤولين عن النتائج. وبالطبع لا يعني هذا الأمرُ أن لا نعيرَ قيمةَ اكتسابِ المعرفةِ الاهتمام الكافي، سواء المعارف الإسلاميّة أو المسائل السياسيّة، بل ينبغي علينا السعي دائمًا في سبيل الارتقاءِ بمستوى معارفنا حولَ الإسلام والموضوعات السياسيّة.

فتحصّلَ ممّا سبقَ أنّ تحقّقَ البصيرةِ لا يعتمدُ فقط على سلوكِ طريق العلوم النظريّة، بل لا بدّ أيضًا من توفّرِ عاملٍ معنويّ له ارتباطٌ بتقويةِ الاعتقادات الدينيّة. وإنّ الإنسانَ كلّما ازدادَ توجّهًا نحوَ أداءِ وظيفتِه والتوكّلِ على الله والأولياء الإلهيين، فإنّه سيتمكّنُ من تشخيصِ الحقائقِ في داخلِه، وسيحصلُ على نورٍ باطنيّ أقوى: «فَاتَّقُوا فِرَاسَةَ اَلْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اَللَّهِ اَلَّذِي خُلِقَ مِنْهُ»[1]. إنّ صاحبَ الإيمانِ الأكملِ

(١) أحمد بن محمد بن خالد البرقي، **المحاسن**، الجزء ١، الصفحة ١٣١.

يحظَى بنورٍ قلبيّ باطنيّ أشدّ، فيرَى الحقائقَ بنور الله، وكلّما كان توجّهه إلى الله ومظهرِ أنـواره - أي صاحب الزمان عليه السلام - أكبر فإنّ بصيرته سترتقي وتشتدّ.

والأمرُ الذي ينبغي أخذُه بعينِ الاعتبار في مسير تقويةِ الاعتقادات الدينيّة، هو أنّ هذه الأفكار والاعتقادات بمثابة هرمٍ قاعدتُه تضمُّ سطحًا وسيعًا مترامي الأطراف، ولذلك تجد في هذه القاعدة الكثيرَ من الاعتقادات والقيم، ولكن كلّما اتجهتَ من القاعدة نحو رأسِ الهرمِ تُصبحُ هذه الاعتقاداتُ والقيمُ محدودةً أكثر حتى تبلغَ رأس الهرم حيث لا وجودَ إلّا لنقطةٍ واحدة. هذه النقطةُ التي لو أحكمها الإنسانُ في قلبه لبقيَ ثابتًا راسخًا إلى آخر الطريق، ولكن لو انصرَفَ منذ البداية إلى قاعدةِ الهرم فإنّه سيواجهُ آلافَ المسائل الموجودة في هذه القاعدة، التي لو أرادَ إثباتَ كلّ منها لتطلّب منه الأمرُ بحثًا كثيرًا وزمانًا طويلًا، وهذه الفرصةُ ليست متوفّرةً لدى كلّ شخصٍ. لذلك لا بدّ في البداية من معرفةِ رأسِ الهرمِ، ومن بعدها يمكنُ التوجّهُ إلى الأقسامِ القريبةِ منه. فإن كانت هذه المباني محكمةً أمكنَ الانتقالُ بالتدريج إلى المراحلِ الأخرى وتقويتها هي أيضًا، فإن طرأ أيّ إشكالٍ فيها، أمكنَ رفعُه من خلال الرجوعِ إلى المباحث المبنائية والأساسية وإزالة الإبهام بواسطتها.

يؤكّد الإسـلامُ كلَّ التّأكيدِ على إحكامِ المسائلِ الثلاثة - التوحيد والنبوة والمعاد - قبل أيّ شيء، إذ إنّ من شأن صلاحِ هذه الأصول الثلاثة أن يحلّ كلّ المسائل الأخرى. فبعد الفراغ من بحثِ النبوّة وإثباتِ أنّ كلَّ ما يقولُه النبيّ صحيحٌ، يُمكننا بسهولةٍ معرفة الشّخصِ الذي ينبغي أن نرجعَ إليه بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أجل إدارة المجتمع. وإنّ الذي ينظرُ بعينِ الإنصافِ إلى حياةِ الرسولِ الأكرمِ صلى الله عليه وآله وسلم يجدُ أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يفوّت فرصةً إلّا

وأخبر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو الخليفةُ من بعدِه. أمّا الشخصُ الذي يشكُّ في أصل نبوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويراهُ كباقي الأشخاصِ يقعُ في الخطأ والاشتباه فلن يكونَ لكلامِ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أيّ اعتبارٍ عنده. فلأنّ الأُسسَ الأوليّةَ لم تكن محكمةً عند هذا الشخص، وقع في المشاكل في باقي المسائل، بينما لو كان قد أحكمَ هذه الأُسس واعتقدَ بعصمةِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما وقع في أيّ مشكلةٍ في بحثِ الإمامة. ومن جملةِ الاعتقاداتِ الأساسيّةِ أيضًا الاعتقادُ بالقرآنِ الكريم والتصديقِ بتعاليمه. هذا الكتابُ الذي أُنزِل كي لا يَشكَّ أحدٌ في تعاليمه، فإذا بنا نرى البعضَ يدّعي قبولَه للنقد، الأمر الذي يجعلُ من القرآنِ كتابًا لا يختلفُ عن أيّ كتابٍ آخر.

وعليه، فمن أجل معرفةِ الحقيقةِ حقَّ المعرفةِ لا بُدّ من شروعِ السَّيرِ من رأسِ الهرمِ وإحكامِ الأُسسِ والمباني، ومن ثم التحرك إلى قاعدةِ الهرمِ بالتدريج والارتقاء بالمعارف. وإنّ الإنسانَ إذا ما أحكمَ هذه المباني فإنّه، وان لم يبلغ تَمامَ الحقائق، إلّا أنّ له أملًا بالنجاة لأنّ أُسسَ بُنيانِه مُحكمةٌ، أمّا من كانت مَبانيه مُتزلزلة، فإنّه لن يمتلكَ أُسسًا تسمحُ له ببناءِ بُنيانه. وإنّ غرضَ العدوّ من اشتغالِه في استهدافِ هذه المسائل، والتشكيكِ في المباحث المبنائيّة هو اقتلاعُ جذورِ هذه الأُسس.

يؤكد الإمام الراحل قدس سره في وصيته الإلهيّة - السياسة بعد ذكرِ حديثِ الثقلين على أهمية هذه المباحث المبنائيّة وييمّم الوجوهَ نحو الكتاب والعترة: «إنّي تاركٌ فيكُمُ الثقلَينِ كتابَ للهِ وعترتي أهلَ بيتي فإِنَّهُما لَنْ يفْتَرِقا حَتّى يرِدَا عَلَي الْحَوض»[1]، وبإيراده لهذا الحديث الشريف في بداية وصيته يشير الإمام إلى أنّ العصمةَ عن الضلال

(١) محمد بن علي بن حسين بن بابويه القمي، **كمال الدين وتمام النعمة**، الصفحه ٢٣٤.

مرهونةٌ بالتمسك بالكتاب والعترة وأنّ العدوّ يسعى من أجل سلبِنا هاتَين الجوهرتَين الثمينتَين من خلالِ التشكيك الجدّي فيهما. ففيما يرتبط بالقرآن الكريم يَطرحُ البعض بحثَ تعدّد القراءات بغرض إيهامِ الناس أنّ للقرآنِ تفسيراتٍ متعددة لا يُعلَمُ الصحيحُ منها من الخاطئ، وهكذا يفقدُ القرآن قيمتهُ ويخرُجُ عن دائرة العَمَل ويغدو وجودُه كعدمِه. وفيما يرتبطُ بالإمام المعصوم عليه السلام يُلقي البعضُ شتّى ألوان الشبهات بغرض الإلقاء في الأَذهان أنّ المعصومين عليهم السلام قد وقعوا في فترات حياتهم في الكثير من الأخطاء ومن جملتها حرب الإمام الحسين عليه السلام مع يزيد، فلا يبقى من الدين شيءٌ، إذ إنّ كلّ ما جاء في الدين مردّه إمّا الى القرآن وإمّا الى كلام النبي والائمة المعصومين عليهم السلام.

ب. التشخيص الصحيح والدقيق للحقّ والباطل

إنّ مُجرّد التقليبِ في صفحاتِ التاريخ وتصفّحها يُظهرَ لنا أثرَ عدم التشخيصِ الصحيحِ للحقّ والباطلِ في تعريضِ المجتمعِ الإسلاميّ إلى كافّة أشكال المخاطر الجديّة. فبعد ارتحالِ الرسولِ الأكرمِ صلى الله عليه وآله وسلم انجرَّ إلى الاختلافِ والتنازعِ والتناحرِ أشخاصٌ كانوا في ما سبق قد قاتلوا في خندقٍ واحد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووصل التناحر بينهم إلى حدّ إشهار السيوف.

ومن النماذجِ على ذلكَ حروبٌ من قبيلِ حرب صفّين والجمل، حيث كان المتواجهون والمتحاربون فيها هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهنا يُطرح السؤال التالي: «ما سرّ هذه الاختلافات؟»، فإن كان تفكيرُ هؤلاءِ الأشخاصِ منحصرًا في منافعهم الشخصيّةِ والدنيويّةِ فقط، فلماذا أسلموا، بل أصبحوا على اسعدادٍ لقتالِ الكفّارِ والمشركينَ في معركة بدر؟ ولقد كان كثيرٌ منهم من الذين تَبدو على أجسادهم آثارُ الجِراحِ جرّاءَ الحروبِ التي خاضُوها مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن الذين بذَلوا الكثيرَ من أموالهم في

خدمةِ الإسلامِ، ولكنّهم سُرعانَ ما بدأوا بالتناحرِ بعدَ ارتحالِ الرسولِ ﷺ، وفي ظرفِ عدّةِ سنواتٍ من حكومةِ أميرِ المؤمنين أشعلوا الكثيرَ من الحروبِ الدامية.

بالإضافةِ إلى أحـداثِ صدرِ الإسـلام، فعلى طولِ الألف وأربعمئة سنة من عمرِ الإسلامِ شهدَت بعض الدولِ الإسلاميّةِ الكثيرَ من النزاعاتِ والتناحراتِ المشابهة لتلك التي وقعت في صدر الإسـلام. في بعض الأحيان كانت تشتعلُ الحروبُ في الدولِ الإسلاميّةِ بهدفِ مواجهةِ الكفّار والدفاع عن دولةِ الإسلام وما شابه ذلك، وهذا ممّا يمكن تفهّمُه. ولكنّ هذه النزاعات والحروب كانت تشتعلُ أحيانًا بين شخصيّاتٍ كانت تربطُها علاقاتُ الصداقةِ لسنواتٍ طويلةٍ، تُحاربُ في خندقٍ واحدٍ، تمتلكُ فكرًا واحدًا وتُمارِسُ عملًا واحـدًا، وهُنَا يَصعُبُ تفهّمُ هذه النزاعاتِ. وفي الجمهوريّة الإسلاميّة نواجهُ نماذجَ مصغّرةً لهذه النزاعاتِ والتناحرات.

فإنْ كانَ من البديهيّ أن يتفهّمَ النّاسُ مواجهتنا بعدَ ارتحالِ الإمام الخميني قدس سره لعملاءِ الاستكبارِ العالميّ والأشخاصِ الذين يُحاربونَ الجمهوريّة الإسلاميّة ويُجاهرونَ بالعداءِ للإسلامِ والدين، فإنّ تناحرَ الشخصيّات التي قاتلت جنبًا إلى جنب وحاربَت الكفّارَ والمشركينَ والمنافقينَ، ليسَ من السّهل فهمُ سرّه بالنسبةِ إلى عامّةِ الناس، لذلكَ تراهُم يقعونَ في شديدِ الحيرة والترديد. إنّ أحداثًا كهذه تكونُ أحيانًا مُعقّدةً فتزيدُ من الإبهَامَات بشكلٍ يحولُ دون إمكانٍ تشخيصِ الحقّ والباطِل، فيمتزِجان في بعضِهمَا بطريقةٍ تَجعلُ أفطنَ الناسِ يشتبهُ في تَشخيصِ بعض المسائلِ. وهذه الوضعيّة التي تجعلُ الناسَ في حالةٍ كهذه بحيثُ تختلطُ الوقائعُ فيمَا بينها إلى درجةٍ يصعب معها تشخيصُ الحقّ والبَاطلِ، نسمّيها في أدبيّاتنا بالفتنة.

أضِف إلى الكُتبِ المشتملةِ على قصصِ الحوادثِ التي وقعت بعد ارتحالِ الرسولِ الأكرم ﷺ كلامَ أميرِ المؤمنين عليه السلام في **نَهجِ البلاغةِ**، إذ إنّه زاخرٌ بذكر كلمة «الفتنة» ومشتقّاتها. وقد قدّم الرسول ﷺ لأمّته قبل ارتحاله توقّعاتٍ وتوجيهاتٍ وإرشاداتٍ متنوّعة حولَ وقوعِ الفتنِ.

إنّ السؤالَ الذي يطرحُ نفسَهُ في قرارةِ كلّ شخصٍ هو: «ما هو تحليلُ هذه الفتن؟».

أحدُ أفرادِ بني هاشم شخصيّة محترمةٌ باسم «الزبير» وهو ابن عمّ الرسول ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام. وقد كان الزبير من الزمرة الأولى التي بايَعت أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافةِ بعدَ الخليفة الثالث. إلّا أنّه بعد مدّة قصيرة من حكم أمير المؤمنين عليه السلام بدأ بتشكيلِ جبهاتٍ لمواجهته عليه السلام وأشهر سيفَه محاربًا عليًّا عليه السلام وأتباعَه، وأشعلَ حربَ الجمل. وإنّ النقطة التي تَحوزُ أهميّةً ههُنا هي أنْ نعرفَ كيفيّة تحليل هذه الوقائع.

وإنّ الحصولَ على إجابةٍ لهذا السؤال يتوقّف على الالتفات إلى مقدّمةٍ مفادُها أنّ الظواهرَ الاجتماعيّة لا تَحدُثُ بتحقّق عاملٍ واحدٍ فقط، بل عادةً ما تجتمعُ عشراتِ بل وأحيانًا مئاتِ العوامل كي توجِبَ حدوثَ ظاهرةٍ معيّنة. فلا ينبغي لأحدٍ أن ينتظِرَ أنّ الإجابة عن السؤال المتقدّم تكمُنُ في تحديدِ عاملٍ واحدٍ مشخّصٍ كعلّةٍ تامّة لوقوعِ هذه الفتن، فقطعًا يوجدُ عشراتُ بل مئات العواملِ المختلفةِ التي شكّلت الأرضيّة لوقوعِ هذه الفِتن. إلّا أنّه من الممكنِ تعدَادُ بعضِ العوامِل المهمّة وتقسيمُها إلى أقسامٍ وترسيمُ الخطوطِ العريضةِ والكليةِ لحياتِنا من خلالِ الاستفادةِ منها كي نعِي وظائفنا المستقبليّة.

إنّ المباحثَ المرتبطةَ بكيفيّةِ تحليلِ الظواهرِ الاجتماعيّةِ تُعدُّ مِن مباحثِ العلومِ الاجتماعيّةِ، والتي للأسفِ أصبح الدافعُ نحوَ البحثِ والتحقيقِ فيها ضعيفًا جدًّا مُقارنةً بالبحثِ في المسائلِ الطبيعيّة، ونـادِرون همُ العلماءُ الذين لديهم استعدَادُ صَرفِ عمرِهِم في تبيين ظاهرةٍ اجتماعيّةٍ تبيينًا صحيحًا. وإنّ من أهمّ الخدماتِ التي قدّمها الأنبياءُ والأولياءُ أنّهم قد بيّنوا المسائلَ التي تحتاجُها البشريّة والتي ليسَ لدى البشرِ دافعٌ للبحث فيها، وأشـاروا إلى هذه الأبحاثِ في كلامِهم، كي يتمكّن الشخصُ الذي يريدُ البحثَ في هذه المسائلِ من الاستفادةِ من كلامِهِم، فيكتشفَ عللَ وعواملَ حدوثِ الظواهرِ الاجتماعيّةِ التي من شأنِها تَحديدُ مصيرِ الإنسانِ. وَيكفِي في بَيان أهميّةِ هذه المسائلِ أنَّ الحوادثَ التي وَقَعت بعدَ ارتحالِ الرسول ﷺ، لو كانت قد حَدَثَت بشكلٍ آخر، ولو كانَ المسلمونَ قد عَمِلوا بوصيّةِ النبيّ ﷺ يومَ الغديرِ عندمَا رفعَ يدَ أميرِ المؤمنين وقال: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَـوْلاه[1]» لَكَانت وضعيّةُ الإسلامِ مُختلفةً الآن، ولَانتشرَ الدين بسرعةٍ بين الأمم، ولَاستفادت الكثيرُ من المِللِ من بركات الإسلام، ولَقلّت المفاسِدُ والذنوبُ كثيرًا، ولَبلغَت الانحرافاتُ حدَّها الأقلّ، ولكنّ وقوعَ تلكَ الفِتن حالَ دونَ تحقيقِ هذه الأمورِ. ومن هُنا ينبغِي علينَا معرفةُ عِللِ وقوعِ هذه الفِتن، كي نتمّكنَ من مواجَهتِها والتصدّي لَها إن واجَهتنَا في زَمانِنَا هذا.

وقَد تصدّى أميرُ المؤمنينَ عليه السلام - كما جاءَ في **نهج البلاغة** - لطرحِ بحثِ الفتنةِ، وإنّ فَهمَ أسرارِ كلامه عليه السلام ودقائقِه يتطلّبُ الكثيرَ من الدقّةِ. وفقط في صُورةِ إعمالِ هذه الدقة في النظر نقتَدِرُ على الاستفادةِ من كلامه عليه السلام لحَياتِنَا ولِمواجهةِ الفِتَن والمفاسِد التي قد تقعُ في أيّ

(١) محمد بن علي بن الحسين به بابويه القمّي، **عيون أخبار الرضا**، الجزء ١، الصفحة ٦٤.

زمانٍ. فيقول عليه السلام في بعضِ خطبه: «إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهوَاءٌ تُتَّبَعُ وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ يُخَالَفُ فِيها كِتَابُ الله وَيَتَوَلّى عَلَيْها رِجَالٌ رِجَالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ الله فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هذا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ فَهنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهمْ مِنَ الله الْحُسْنى»(١).

وعليهِ، فأينَمَا تقع الفتنِ فإنّنا سنشهدُ اختلاطَ الوقائعِ ببعضِها، وإيجادَ الإبهاماتِ، وامتزاجَ الحقّ بالباطِلِ، وعندهَا يَصعُبُ تشخيصُ الطريقِ الصحيحِ من غير الصحيح، ومن المُمكِنِ حتّى أن يُخدَعَ في الفتنةِ أشخاصٌ من ذوي الفطنةِ والذكاء، وإن استمرّ الوَضعُ على هذه الحالةِ من المُمكنِ أن تصلَ الأمورُ إلى انجرارِ البعضِ إلى الفساد والظلم وسفكِ الدماءِ من غيرِ أن يشعروُا. بَينَما إذا تشخّصت عَوامِلُ حُدوثِ الفتنةِ في المُجتمعِ من قَبلُ، فإنّ أهلَ البصيرةِ لن يَسقطوا في فخ هذه الفتنةِ.

في هذه الخطبةِ يذكُرُ أميرُ المؤمنينَ عاملَينِ أساسيَّين لنشأةِ الفتن، وإنّ أخذَ هذَين العاملَينِ بعينِ الاعتبارِ من شأنِهِ أن يُمهّد للإنسانِ أرضيّةَ الفهمِ والبصيرةِ. العاملُ المَعرفيُّ والعامِلُ العاطفيُّ هُما العاملَان اللّذانِ سلّطَ أميرُ المؤمنينَ الضّوءَ عليهما، وأعارَهُما اهتمامًا خاصًّا. ومن أجلِ توضيحِهما لا بدّ من التذكيرِ بنقطةٍ مفادُها: إنّ أفعالَ الإنسانِ الاختياريّةِ تَنشأُ بفعلِ عاملَينِ، فيجبُ على الإنسانِ في البِدايةِ أن يَعرِفَ ويُدرِكَ مجموعةَ أمورٍ مُختلفةٍ كي يَختارَ أحدَها، وبالإضافةِ إلى معرفتِه بهذه الأمورِ لا بدّ من توفّرِ «الإرادةِ» تجاهَ القيامِ بفعلٍ ما، فطالما لم يُرِد القلبُ

(١) السريف الرضي، **نهج البلاغة**، الحطبة ٥٠.

فعلًا معيّنًا، فإنّ الإنسانَ لن يأخذَه على مَحملِ الجدّ، إذ إنّ أخذَ عملٍ ما على محملِ الجدّ يتوقّفُ على معرفته جيّدًا وتحقّق الدافع القلبيّ نحو فعلِه. وإنّ كلَّ فتنةٍ تحدُثُ في هذه الدنيا تنشأُ أيضًا من عاملَين:

العاملُ الأوّل هو نقصُ المعرفةِ وبتعبيرٍ كلّي «الجهل»، ففيما ما يرتبطُ بالقيم، إذا لم يتمكّن الإنسانُ من تشخيصِ الحُكمِ القيميّ المُرتبط به، ووقعَ في حيرةٍ وإبهامٍ، فإنّه بلا شكّ سيقعُ في الخطأ، وكذلك فيمَا يَرتبطُ بمعرفةِ الموضُوعاتِ، فإن لم يقتَدر على معرفةِ الموضوعِ بشكلٍ صحيح فسيقعُ في الخطأ أيضًا. وحتّى في بحثِ معرفةِ العدوّ، على الإنسانِ أن يعرفَ عدوَّه جيّدًا كي يعرفَ كيفيّةَ مُواجَتِه.

إلّا أنّ العاملَ المعرفيَّ ليس العاملَ الوحيدَ المؤثّرَ في وقوعِ الفِتَنِ، بل إنّ قسمًا من التأثيرِ يرتَبِطُ بالعاملِ الثاني وهو هَوَسُ الشخصيّات والمجموعَات. إذ إنّ بعضَ الناس، مع أنّ الأمورَ واضحةٌ بالنسبةِ لهم، إلّا أنّهم لا يعملون بما تَقتضِيهِ معرفتُهُم لأنّ قُلوبَهم لا تُريد.

وعليه، فمن أجلِ تحقيقِ المُجتمعِ الصّالح لا بدّ من الارتقاءِ ببصيرةِ الأفراد، وأوّلُ شرطٍ لازمٍ لاكتسابِ هذه البصيرةِ هو تقويةُ المعارِفِ في مُختلفِ الميادينِ والصُّعُد، سواءٌ على الصعيد الدينيّ، أو الاعتقاديّ، أو الأخلاقيّ، أو القِيَمي، أو غيرها. وبالطبع لا تكفي هذه المعرفةُ لوحدِها في اكتسابِ البصيرةِ، بل لا بدّ إلى جانب الارتقاء المعرفيّ من تهذيب الأخلاق، وتقويةِ الإرادة بشكلٍ يجعلُ الفَردَ لا يتوانى عن إنجازِ عملٍ ما إذا شخّصَ أنّه وظيفةٌ يجبُ القيامُ بها.

وممّا يجدُرُ الالتفاتُ إليه أنّ الفتنَ التي وَقعت في صَدرِ الإسلامِ، لم يكُنْ لنشوئها أيُّ ارتباطٍ بافتقارِ الناس في تلك الآونة إلى الصناعة، ولا بضعفِ علومهم الماديّة وإمكاناتهم الطبيّة، ولا بجهلهم بقوى الطبيعة

وعدم الاستفادةِ الصحيحَة منها، بل إن كان للجهلِ دورٌ في نشأةِ هذه الفِتَنِ فهوَ جهلٌ من نوعٍ آخر، جهلٌ يرتبطُ بالأفعالِ القيميّة؛ أي إنّ الشخص لم يكُن يعرفُ «هل إنّ القِيَامَ بالفعلِ الفلانيّ حَسنٌ أم سيّئ؟».

وإنّ تَقديمَ الإجابةِ على مِثلِ هذا السؤالِ لا تَعجَزُ عنهُ العلومُ الطبيعيّةُ فقط، بل حتّى العلومُ الاجتماعيّةُ بمعناها الأعمّ عاجزةٌ عن ذلك، ومن أجلِ الحصولِ على هذه الإجابةِ لا محيصَ عن الرجوعِ إلى الدينِ، لأنّ المسائلَ الأخلاقيّةَ والقيميّةَ وما شابهها تُطرحُ ويُجابُ عنها في الدين، وإنّ أيَّ خَللٍ في فهمِ هذه المسائل يجعلُ طريقَ الوصولِ إلى البصيرةِ أصعبَ وأشقّ.

فعلى سبيل المثال، دائمًا ما كان يُطرحُ السؤال التالي: «ما هو رأيُ الإسـلام في مسألةِ الحكومة؟ وما الذي ينبغي فِعلُه كي تُصبحَ حكومةٌ ما إسلاميّةً؟». ولم يُطرَح في العالمِ الإسلاميّ جوابٌ واضحٌ على هذا السؤالِ، باستثناءِ أشكالِ الحكمِ التي طرحَها المتقدّمون من علماءِ أهلِ السنّةِ والتي طُبّقت في عهدِ الخلفاء الثلاثةِ. فمن وجهةِ نظرِ أهلِ السنّة، ينبغي على الشعبِ أن يُعيّنَ خُلفاءَه بنفسِ الطريقَةِ التي عُيّن بها الخُلفاءُ الثلاثة، كَأن يَختارَ الناسُ مجموعةً من الشخصيّات للشورى، وهذه الشخصيّات تختارُ الخليفةَ. وقد نَسَبَ أهلُ السنّة طُرُقَ التعيينِ هذه إلى الدينِ، حتّى وصلَ الأمرُ بالكثير من الشخصيّات السنيّة في هذه الأيّام إلى الدعوة إلى ضرورةِ تطبيقِ الديموقراطيةِ في زمانِنا الحاضرِ، وأنْ ليسَ لدى الدين طريق سوى هذا الطريق. من هنا، فطبقًا لرأي أهل السنّةِ فإنّ الإسلامَ يقبَلُ الديموقراطيّة كشكلٍ من أشكالِ الحكم ينبغي تطبيقه والعمل به. غيرَ أنّ الشيعةَ، ومنذ البدايةِ، كانوا قد أَظهَروا حساسيّةً خاصّةً تجاهَ مسألةِ الولايةِ والحاكميّة، بل إنّ قوامَ الفكرِ الشيعيّ معتمدٌ

على مسألةِ الإمامة. ووفقَ رأيهم لا بُدّ أن يُعيَّنَ الحاكمُ من طرفِ الله تعالى، ولذلك عندما بايع المسلمون الخليفةَ الأوّل والثاني، خالفهم في ذلكَ أشخاصٌ كسلمان وأبي ذرّ، وبيّنوا للناس أنّ هذَين الشخصَين لم يُعيَّنا من قِبَلِ الله تعالى كخلفاءَ للنبي. وعلى أيّة حالٍ، فقد بقيت هذه المسألةُ بهذا الشكلِ في عالَم التشيّعِ بمثابةِ أصلٍ ومسألةٍ مصيريّة. وقد شهدت هذه المسألةُ على طولِ الألف وأربعمئة سنة صُعودًا وهُبُوطًا، إذ ظهرت بين الفينة والأخرى بعضُ الحكوماتِ الشيعيّة، بل وإنَّ بعضَ السلاطينِ كانوا قد أفسَحوا المجالَ لبعض الفقهاءِ الشيعةِ للتدخّل في الأمورِ الحكوميّة وأخذُوا بمشورتهم كالمحقّق الكركيّ وكاشف الغطاء، إلّا أنّ علماءَ الدين لم يتمكّنوا من استلامِ السلطةِ والسيطرة على الحكم من أجلِ إجراءِ الأحكامِ الإلهيّة، حتّى جاء الإمام الخميني ﷺ وحوّل هذا الفكرَ إلى أمرٍ عمليّ. فقد طرحَ الإمامُ في البداية مباحثَ ولاية الفقيه وبحَثَها بشكلٍ علميّ، وأظهر آراءه في كِتَاباتِه، إلى أن وصلَ الأمرُ في النهاية بفضل آرائه وتبييناته إلى التحقّق العينيّ لثورةٍ إسلاميةٍ في إيران تحت اسم «حكومة ولاية الفقيه». ولكنّ السؤال الذي يُطرَحُ الآن: «إلى أيّ حدّ استطعنا الوصول إلى العلم الراسخ في هذه المسألة؟؟ وإلى أيّ حدّ هذا الموضوع واضحٌ من الناحية العلميّة والنظريّة عند من كانوا ولا زالوا حُماةَ ولاية الفقيه؟؟».

إنّ الكثيرَ من الأشخاصِ الذينَ استلموا مسؤوليّاتٍ بنحوٍ من الأنحاءِ بعدَ انتصارِ الثورة، مع أنّهم كانوا من أصحابِ الفكرِ الأصوليّ[1] وأنصارَ ولايةِ الفقيه وأتباعَ خطّ الإمامِ الخمينيّ، إلّا أنّ مسألةَ ولايةِ الفقيه لم تكن واضحةً عندهم من الناحية العلميّة، الأمرُ الذي مهّدَ الأرضيّةَ لنشوءِ بعض

---

(١) أو تيّار المحافظين وهو التيّار الداعي إلى التمسّك بمبادئ الثورة الإسلامية. [المترجم]

الفِتَن من قبيلِ الفتنةِ التي وقعت بعدَ الدورةِ العاشرةِ من الانتخابات الرئاسيّة في شهر خرداد من العام ١٣٨٨ هـ ش[1]. إذ إنَّ أحدَ أهمّ عواملِ نشوءِ هذه الفتنةِ وانتشارِها أنّ مسألةَ ولاية الفقيه لم تكن من الناحية العلميّة والفكريّة واضحةً كما ينبغي عند بعضِ الخواصّ، وقد أذعَنَ بعضُ المسؤولينَ في الجمهوريّة مِرارًا أنّهم يقبَلون ولايةَ الفقيه فقط لأنّها مطروحةٌ في القانونِ الأساسيّ للجمهويّة. ولازمُ هذا الكلام أنّه لو لم تُطرح ولايةُ الفقيه في القانون الأساسيّ لما قبلها هؤلاءِ الأشخاص، وفي هذه الحالةِ لو عُدّلَ القانونُ الأساسيّ وحُذف منه الأصلُ المرتبطُ بولاية الفقيه فعندئذٍ يصبحُ لا اعتبارَ لأصل ولايةِ الفقيه على الإطلاقِ من وجهةِ نظرِ هؤلاء. ومن جهة أخرى، يرى هؤلاء أنَّ اعتبارَ القانون الأساسي أيضًا مرهونٌ برأي الشعبِ، ومن هنا فإذا تغيّر رأي الشعبِ وأعلن الناسُ رفضَهم لأصلِ ولايةِ الفقيه فلا مشروعيّة حينها للوليّ الفقيه، فيسقط هذا الأصلُ من الاعتبار في القانون الأساسيّ.

إذًا، عندمَا يكونَ تفكيرُ الإنسانِ من هذا القبيلِ، فلن يرى في عنصرِ ولايةِ الفقيه قوامًا للتشيّع، ولن يرى لزومًا في إطاعةِ الوليّ الفقيه. وإنّ شخصًا هذا حاله سيرى حكمَ الوليّ الفقيه على أقصى تقديرٍ كقانونٍ صوّتَ عليه مجلسُ النوّاب، فبإمكانِه أن يُخالفه أحيانًا وأن يغيّره أخرى عبر ممارسةِ الضغطِ وتنظيمِ العصيانِ المدنيّ والتظاهرات والإضرابات. ففي فتنةِ العام ١٣٨٨ هـ ش، قامَ البعضُ، وبهذه النظرة، بتنظيمِ التظاهراتِ والتجمّعاتِ غير القانونيّة، وغرضهم من ذلك إجبارُ

---

(١) انتخابات شهر حزيران من العام ٢٠٠٩ م، والتي فاز فيها الرئيس الإيراني الأسبق محمود أحمدي نجاد ضدّ مير حسين موسوي.

وقعت على إثر نتائج الانتخابات احتجاجات من أنصار مير حسين موسوي الذين ادّعوا تزوير نتائج الانتخابات، وسرعان ما تحوّلت هذه الاحتجاجات إلى أعمال شغب وتخريب وقتل. [المترجم]

الوليّ الفقيه على التسليم لرغباتهم الباطلةِ المبتنيةِ على إبطالِ نتائجِ الانتخاباتِ وعلى العملِ بخلافِ القانون. وإنّ مُشكلةَ هؤلاءِ الأشخاصِ الأساسيّة أنّهم لم يُعالجوا من الناحية الفكريّة والنظريّة الكثيرَ من المسائلِ الدينيّةِ والقيميّةِ والثوريّةِ، مع أنّهم كانوا من السبّاقينَ في الانخراطِ في صفوفِ الثورة الإسلاميّة، بل إنّ بعضَهم كان قد شاركَ لسنواتٍ في درس الإمام الرّاحل قُدِّسَ سِرُّه.

وأحيانًا يطرحُ هؤلاءِ الأشخاص ومن يُشاركُهُم أفكارَهم هذه الشبهاتِ في المراكزِ العلميّة، وخاصّةً الجَامعاتِ وفي الجلساتِ والحواراتِ المفتوحة، وفي الصفوفِ وخاصّةً في كليّاتِ الحقوقِ والعلوم السياسيّةِ والتي تعتبرُ مكانَ البحثِ في هذه المسائلِ، وفي النتيجةِ يقعُ الطلّابُ والجامعيّون الذي لم يُحصّنوا أنفسَهم من هذه الشبهات تحت تأثيرِ كلامِ وشخصيّةِ أساتذتهم، ولن يكونَ لديهم أيُّ كلامٍ في مُقابلِ كلامِ أساتذتهم، وعندها فإنّ هذه المَباحثَ ستتركُ أثرَها في أذهانهم شاؤوا أم أبوا، وعلى أقلّ تقدير ستوصلهم إلى الشكّ.

وعليه، ينبغِي الالتفاتُ إلى أنّ الحكمَةَ من الفِتَنِ هي امتحانُ البشر، وهذا الامتحانُ يظهرُ في كلّ زمانٍ بلونٍ وشكلٍ خاصّ، إلّا أنّ النقطةَ المشتركةَ في كلّ الفتنِ، منذ صدرِ الإسلامِ إلى يومِنا هذا، هي ظُهورُ الإبهاماتِ والاضطراباتِ والفوضى الفكريّة قبلَ نشوء الفتنة، وإنّ هذه الفوضى هي التي تمنحُ الفتنةَ معناها الحقيقيّ، فإذا اختلطَ الحقُّ والباطلُ، وتلوّنَ الباطلُ بلونٍ من الحقّ، وظهرَت في الحقّ شوائبُ من الباطلِ، فحينها تتشكّلُ الفِتنُ. وعندها لا بدَّ من معرفةِ الحقّ والباطل كي يزولَ الضّبابُ والغُبار.

ويشهَدُ على صدقِ هذه الحقيقةِ قسمٌ من عبارةِ أمير المؤمنينَ عليه السلام في **نهج البلاغةِ** التي ذكرناها من قبلُ، حيث يقولُ عليه السلام: «وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ»[١].

وعلى هذا الأساسِ، فليسَ الأمرُ أنّ الحقَّ يكونُ دائمًا في طرفٍ مستقلّ ولا وجودَ لنقطةٍ من الباطلِ فيه، أو أنّ الباطلَ يكون دائمًا في طرفٍ مستقلّ ولا وجودَ لأيّ نقطةٍ من الحق فيه. فلو أمكَنَ للباطلِ أن يخلُصَ كلّيًا من شوائب الحق، وللحقّ أن يَخلُصَ كلّيًا من شوائب الباطل، فعندئذٍ سيختارُ الجميعُ الحقّ ويسيرون نحوَه، وسيتركُ الجميعُ الباطلَ ويفرّونَ منه، إذ إنَّ كلّ من يميلُ إلى باطلٍ ما، فإنّه يميلُ إليه لوجودِ شائبةٍ من الحقّ فيه، إلّا أنّه في الواقع باطلٌ يرتدي لبوسًا من الحقّ. وأيّ وقتٍ يُدافعُ أحدٌ عن الباطلِ فإنّه يتّكئ ويعتمدُ في دفاعِه على نقطةِ الحقّ هذه ولا يتوجّهُ إلى جنبةِ الباطل. لذلك فمن أجلِ اكتسابِ البصيرةِ في مثلِ هذه المواردِ لا بدّ من تشخيصِ هذه النقطة الأساسيّة من جهةٍ، والالتفاتِ إلى جنبة الباطل من جهةٍ أخرى. فكما أنّ الشخصَ إذا أرادَ أن يطهوَ الأرزّ فلا بدّ لهُ أوّلًا من تنقيتِه وإزالةِ الشوائبِ منه، فإن رأى فيه حصاةً أزالها، بدل أن يرمي كلّ الأرزّ جانبًا بحجّة وجود الحصى فيه، بل يسعى في إزالةِ الحصى جانبًا. فكذلك إذا وَجَدَ بين ركامٍ من الحصى حفنةً من القمح فينبغي عليه إخراجُها، لا أنّه بحجّةٍ وجودِ القمحِ بينَ ركامِ الحصى يُسرِي قيمةَ القمحِ إلى الحصى، فيعطي للحصى قيمةً ليستَ له. وكذلك الأمرُ في بحثنا، إذ ينبغي تشخيصُ جنسِ الحقّ عن جنسِ الباطلِ، فلا ينبغِي أن تفرحَ قلوبُنا لوجودِ حفنةٍ من الحقّ بين ركام

---

(١) السريف الرضي، **نهج البلاغة**، الخطبة ٥٠.

الباطلِ، ومن جهةٍ أخرى، إن وقعَ خطأٌ في صفوفِ الحقّ فلا ينبغي لهذا الخطأ أن ينسيَنا كلّ ذلك الركام من الحق. بالطبع ينبغي السعيُ في سبيل تطهيرِ الحقّ من كلّ شوائبِ الباطلِ، إلّا أنّ هذا العالمَ يقتضي اختلاطَ الحقّ بالباطلِ كي يتحقّقَ الاختبارُ والامتحانُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾[1]. إنّ وظيفتَنا أن نسعى كي لا يبقى في جبهةِ الحقّ عنصرٌ من الباطلِ، إلّا أنّه في مقام العملِ لا يُمكنُ لجبهة الحقّ أن تَخلُصَ بشكلٍ كاملٍ من أدرانِ الباطلِ. نأملُ مع ظهورِ صاحبِ العصرِ الزمانِ عليه السلام أن يمتازَ الحقُّ عن الباطلِ كلّيًا، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[2]. ولكن حتّى ذلك اليوم فإنّ جبهة الحقّ لن تخلوَ من العثراتِ والأخطاءِ، وستظهرُ فيها، شئنا أم أبينا، نقاطٌ من الباطل أيضًا. وفي هذه الحالة ينبغي علينا تشخيصُ الأصل من الفرع، وتركيزُ القوى في الدرجة الأولى على النقاطِ الأصليّة.

ج. التحرّك في مسير الحقّ والحقيقة

وَهَبَ اللهُ تعالَى الإنسانَ قوّةً يمكنُهُ من خِلالها تحليلُ القضايا والمسائل، وإزالةُ الإبهامِ عنها، وتمييزُ المسيرِ الصحيحِ من المسيرِ المُنحرفِ. هذه القوّة موجودةٌ عندَ كلّ عاقلٍ على نحو الاستعداد، فمَن يجتهدُ ويسعَى يمكنه إيصالها إلى مرحلةِ الفعليّةِ. لذا، فإنّ كونَ هذا الاستعدادِ نافعًا ومفيدًا للإنسانِ متوقّفٌ على بَلوَرَته وإيصالِه إلى مرحلةِ الفعليّةِ. إلا أنه قد يطرأ في بعضِ الأحيانِ مانعٌ يحولُ دونَ إيصالِ هذا الاستعدادِ إلى الفعليّة. يأتي القرآنُ الكريمُ على ذكرِ أُناسٍ أُسدلَت أمامَ أعينِهم حُجُبٌ

---

(١) سورة الرعد، الآيه ١٨.

(٢) سوره الأنفال، الآيه ٣٧.

وأغشيةٌ، فغدَوا لا يقدرونَ على الإبصارِ على الرغم من امتلاكهم للعيون. يقول الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ـ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ـ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(١). إنّ عُيونهم هذه كانت في البِداية سالِمةً، لا يحولُ بينها وبين الإبصارِ أيُّ حائلٍ أو حِجاب، ولكنّ أصحابَ هذه العيونِ قامُوا بأعمالٍ استحقّوا على إثرها عقوبةً، وكانت عُقوبتهم أن توضَعَ أمامَ أعينهم حُجُب تمنعهم عن رؤية الحقائق. ومن قبيلِ هذه الآياتِ آياتٌ أُخَر، مفادُها أنّ اللهَ تعالى يعتبرُ هذا الأمرَ - أي عقوبةَ عدمِ إدراكهم للحقائقِ بسببِ أعمالهم السيّئة - تدبيرًا إلهيًّا. فالواقعِ أنّ الله بسببِ الأفعال القبيحة التي قام بها هؤلاء يحرمهم من نعمةِ الرؤيةِ والإبصارِ.

ووفق الآيات أعلاه، فإنّ أولئك الذين يكونونَ بصددِ اتّخاذِ اللهِ ودينِه هُزُوًا ولعِبًا، قد أصبحوا من ذوي الوجهين، يَظهرون في كلّ موقفٍ بوجهٍ مختلفٍ. وقد استعملَ القرآنَ كلمة «النّفاق» في توصيفِه لمثلِ هؤلاء الأشخاص، إذ يسعى هؤلاء في كلّ مكانٍ في المجتمع للظهور بالوجهِ الذي تقتضيه ظروفُه، فإذا كانوا بين صفوفِ المُتديّنين، يظهرون بمظهرِ المتديّن من أفرادِ حزب الله، وأمّا إذا كانوا بين صفوف أعداء الثورة فإنّهم يظهرون بوجهِ أشدّ أعداءِ الثورة، فيستهزئون بأفراد حزب الله والمتديّنين. يقول الله تعالى في توصيفِ حالهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾(٢). وإنّ اللهَ تعالى يعتبرُ هذه الفئة أسوأَ من الكفّار، وأنّ عذابَها سيكونُ في أسفلِ

---

(١) سورة البقرة، الآيات ٧ إلى ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤.

طبقاتِ جهنّم، حيث العذابُ أشدُّ من باقي الطبقات: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

تقضي إحـدى السنن الإلهيّة بـأنّ الله سبحانه يمدُّ أي إنسانٍ، عندما يختار طريقًا ومسيرًا معيّنًا ويسعى ويجتهدُ في سلوكه، بالعون والمساعدة على المضيّ قدمًا في هذا المسير، حيث يقول تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[2]. فعلى أساسِ هذه الآية الكريمة، فإنّ الله يمدّ بالعونِ كُلًّا من أهل الدنيا وعُبّادِها، وأهلِ الآخرةِ وطالبي القيم المعنوية. وإنّ العون الذي يقدّمه الله تعالى للأشخاصِ الذين يسلكون طريقَ النفاقِ هو أن يُمهّدَ لهُم الأرضيّةَ المناسبةَ للتمسّك بنفاقهم أكثرَ والثباتِ عليه.

إنّ هؤلاء المُنافقينَ في البدايةِ كانوُا قد شخّصوا الحقَّ والباطلَ، إلّا أنّهم لم يختارُوا طريقًا من هذَين الطريقَين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾[3]. هؤلاءِ لم يكونُوا في صُفوفِ الكافرينَ، وفي نفسِ الوقتِ لم يُؤمِنوا. مع أنّهم قد شخّصُوا الحقَّ من الباطلِ منذُ البدايةِ، إلّا أنّهم عَمدًا وبسببِ ضعفهم لم يكونُوا على استعدادٍ لتحمّلِ المشقّاتِ والصعابِ، وسيصِلُ بهم الأمرُ أيضًا إلى فقدانِ القُدرةِ على تشخيصِ الحقّ، فلوَ أتَيتهم بآلافِ الأدلّة لن يقبَلوا الحقّ. وفي الحقيقة إنّ عقوبتَهم من الله هي أن يختمَ على قلوبِهم وأن تُسدَلَ الحُجبُ فوقَ أعينهم، وإنّ مصيرَ هؤلاء الأشخاصِ في النهايةِ هو عمَى القلبِ، وأن يُحشروا يومَ

(١) سورة النساء، الآية ١٤٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٢٠.

(٣) سورة النساء، الآية ١٤٣.

القيامةِ عمياناً: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

وفي مُقابلِ هذه الفئةِ يوجدُ أشخاصٌ من ذوي البصيرةِ والنظر العميق. إنّ هؤلاءِ يُدركونَ الحَقيقةَ حقّ إدراكها ولا يُخدَعون. هم أشخاصٌ ناصِعون، طاهِرون وأنقياء، وفي نفسِ الوقتِ يرون الحقائق كما هيَ، ويتّبعونَها أيضًا ويلتزمون بها. وإن ظفرَ الإنسانُ بهذه الخصائص وحازَ عليها، فالتزمَ بالحقيقةِ بعد معرفتها وثبتَ على لوازِمها، فإنّ اللهَ سيزيدُ من بصيرتِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[2]. كما أنَّ الإنسانَ إذا ما سلكَ طريقَ الانحرافِ والضلال فإنَّ الله يزيدُ في ضلالِه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[3].

ومِنَ الأمثلةِ التشبيهية لهذه السنّةِ الإلهيّة أنّ الإنسَان إذا ما أرادَ أن يسلكَ مسيرًا مُنحدِرًا ويركُضَ فيه بسرعةٍ، فإنّ عليهِ في البدايةِ أن يصرِفَ مِقدرًا من قوّته كي يتمكّنَ من الحركةِ، إلّا أنّه بمجرّد أن يركضَ يُصبحُ من الصعبِ عليهِ أن يتحكّمَ بنفسِه في هذا الطريق المنحدرِ، إلا إن قلَّ انحدارُ الطريقِ أو وصل إلى طريقٍ مستوٍ. وإنّ هؤلاء الأشخاصِ الذين اختاروا طريقَ الضلالِ وثبتوا عليه، سوفَ يصلونَ في نهايةِ المطافِ إلى مرحلةٍ لا يستطيعون معها التمييزَ بينَ الطريقِ المنحرفِ والطريقِ المستقيم، فهم عندئذٍ لا يسيرونَ في طريقٍ منحرفٍ فقط بل من الآن فصاعدًا سيجعلُهمُ اللهُ في انحرافٍ واعوجاجٍ فكريّ أيضًا.

---

(١) سورة الحج، الآية ٤٦.

(٢) سورة محمد، الآية ١٧.

(٣) سورة الصف، الآية ٥.

إنّ الآيات الشريفة من قبيلِ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١) و﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾(٢) و﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾(٣)، تحكي أنّ اللهَ تعالى سيبقي أُناسًا في غمراتِ الضلالِ، وأنّ أحدًا غيره تعالى لن يستطيع أن يُعيدَ هؤلاءِ إلى مسيرِ الهدايةِ. إنّ الحركةَ في منحدرِ الضلالِ هذا، من شأنِها أن تودي بصاحبِها إلى هكذا مصيرٍ، وعندها سيُفلِتُ عنانُ الاختيار من يدِ الإنسانِ. ومِن هُنا ينبغي على الإنسان أن ينتبه جيّدًا، فإذا ما سلكَ طريقَ الباطِلِ فعليهِ أن يضعَ لنفسه طريقًا للرجوع، وأن لا يهدمَ كلَّ جسورِ العودةِ. من الممكنِ في بعضِ الأحيانِ أن يتغلّبَ الهوسُ على الإنسانِ، ولكنّه إن جعلَ لنفسه طريقًا للعودةِ والرجوعِ فإنّه سينجو من السقوط.

وعليه، فلا بُدّ على الإنسانِ في سبيل اكتسابِ البصيرةِ، بالإضافةِ إلى امتلاكه للقوّةِ والاستعدادِ النظريّ والإدراك والفهم الجيّد، أن يوصِلَ هذه القوّةَ من خلالِ الممارسةِ والتمرين إلى مرحلة الفعليّةِ، وأن يضعَ نفسَه على الطريقِ الصحيحِ. وإلّا فإنّه لو اختارَ طريق الباطِلِ ومارَسَ النفاق، فإنّ الأمرَ سوف يصلُ به إلى الوقوعِ في الخطأ حتّى في المسائلِ العقليّة التي ينبغي للعقلِ أن يحكمَ فيهَا وأن يُدركَ المسيرَ الصحيح، بشكلٍ يُصبحُ الإنسانُ في حالةٍ من الدهشةِ والذهول الدائم: «كيفَ قام الشخص الفلاني في الزمان الفلاني بالفعل الفلاني!!»، وفي هذه المرحلة ينغمسُ الإنسانُ في الضلال إلى درجة فقدانِ الأمل بالهداية، وهذا هو «الإضلال

(١) سوره الجاثية، الآية ٢٣.

(٢) سورة الزمر، الآية ٣٦.

(٣) سوره الروم، الآية ٢٩.

الإلهي». ومن أجلِ النجاة من هذه العقوبةِ، ينبغي عند اكتسابِ البصيرة، بالإضافة إلى الارتقاءِ المعرفيّ، الاستفادةُ من جميعِ الوسائلِ العلميّة من أجلِ الوصولِ بالقوّة النظريّة إلى مرحلة الفعليّة. وإلّا فمنَ المُمكنِ أن تحولَ بعضُ الموانعِ كالنفاق دونَ بروزِ هذه القوّة عند الإنسان، بل إنّ من شأنِ بعضِ الموانعِ أن تَتركَ أثرًا عكسيًّا. وفي صورةِ انعدامِ الموانعِ والقيامِ بالمساعي والجهودِ اللازمة تظهرُ البصيرة عند الإنسان، وفي هذه الحالةِ يمنحُ الله تعالَى هذا الإنسانَ أجرًا مُضاعفًا، وهذا الأجرُ هو الإمدادُ والإلهامُ الإلهيّ الذي يجعلُ من عمليّة التصميم واتّخاذ القرارِ أمرًا سهلًا يسيرًا، وينجِيهِ من أمواجِ الحَيرة والضلالِ حينَ يَغرقُ فيها الجميع، ويُلقِي في ذهنِهِ بريقًا وأنوارًا لا يعرفُ عنها الآخرونَ شيئًا. ولقد شهدنا في تاريخِ الثورة الإسلاميّةِ نماذجَ كثيرةً تؤيّدُ هذه الحقيقةِ. فعلى سبيلِ المثالِ، كانت تقعُ طوالَ فترة الثمان سنوات من الحربِ المفروضةِ من قبل العراق حوادث يقعُ فيها الجميعُ في حيرةٍ من أمرهم وارتباكٍ حولَ ما ينبغي فعلُه، إلا أنّه عادةً ما كانت تلمعُ في أذهان أشخاصٍ من أهل المعنى والتقوى ومن أصحاب القلوب الأنقى برائق كان لها الدور الكبير في حلّ المعضلات.

وبناءً عليه، فإنّ الانتصارَ والخروجَ برأسٍ مرفوعٍ من امتحاناتِ في زمنِ الفتنةِ يحتاجُ إلى سلاحَين:

السّلاحُ الأوّل والأهمّ هو الارتقاء المعرفيّ، وتفادِي النظرة السطحيّة والتفكير الساذج.

ولكنّ أهل البصيرةِ لا يكتفون فقط بتقوية معارفهم، بل يعملونَ أيضًا على تقويةِ إرادتهم لئلّا يأتوا بأشكالِ الأعذارِ والحُجَج عند الشدائدِ كي يتهرّبوا من أداء تكليفهم. وإنَّ هذا الأمرَ بغايةِ الأهميّة وينبغي

الالتفاتُ إليه إلى جانب تقويةِ المعارف، إذ إنّ تقوية الإرادة تدفع بنا نحوَ العملِ بما يقتضيه علمُنا. فلو وصلنا فرضًا في البحثِ المعرفيّ إلى نتيجةٍ مفادُها وجوبُ طاعةِ الوليّ الفقيه، فإنّنا حينها نلتزمُ في مقامِ العملِ أيضًا فنمتثلُ ونطيعُ كلَّ ما يصدرُ عنه.

إنّ الظفرَ بالسلاحِ الثاني أصعبُ من الأول، ولذلك نرى في أحداثِ صدرِ الإسلام أنّ تلكَ الشخصيّاتِ التي جلست لسنواتٍ طويلةٍ تحتَ منبَر رسول الله ﷺ، وكانت في ركابِ الرسول ﷺ وأميرِ المؤمنين عليه السلام، غدَت تخالفُ أمرَهم بدونِ أيّ ذريعةٍ أو عذرٍ. وقد كانت هذه الشخصيّات تخالفُ شخصًا تعرفُ قدرَه جيّدًا، ولكن على الرغم من معرفتها وقعَت في فخّ الانحراف. وإنّ احتمالَ الوقوعِ في فخّ الأنانيّةِ وخُدَعِ الشيطان ليس بالقليلِ عندَنَا، نحنُ الذين لن نتشرّف يومًا بزيارة أحدٍ من الأئمّة عليهم السلام، وحصلنَا على إيماننا من خلالِ مُطالعةِ مجموعةِ كلماتٍ خُطّت على ورق، لذلك ينبغي علينا أن نُراقبَ أنفسَنا جيّدًا وأن نجتهدَ في التمرينِ والممارسة.

وفي المحصّلة، فإنّ علينَا في مسير اكتسابِ البصيرة أن نسعَى في تقوية إرادتنا، وأن نوطّنَ أنفسنَا على مشقّةِ الطاعة. وحتّى لو كانَ مسيرُنا هذا محفوفًا بالصعابِ، إلّا أنّنا نحنُ الشيعة نمتلكُ قوّةً مساعِدةً، ألا وهي التوسّلُ بأولياءِ الله المعصومين عليهم السلام، الأمرُ الذي يسهّلُ علينا الطريق. إنّ للتوسّل بأولياء الله عليهم السلام أثرًا عظيمًا في تقويةِ الإرادة وتشخيصِ صحّة المسيرِ.

د. الإدراك الصحيح للموقعيّة ومعرفة الوظيفة

إنّما يكونُ العزمُ الجديُّ والإرادةُ الصّلبةُ حالًّا للمُعضلاتِ إذا ما استتبعَه معرفةُ الفردِ بموقعيّته ووظيفتهِ. ومن أجلِ معرفةِ ما يبنغي فعلُه في الموقعيّات المُختلفةِ، لا بدَّ من مُلاحظةِ الظروفَ المُختلفةَ، واتّخاذِ القراراتِ على وفقِ ما تقتضيهِ هذه الظروف والعملِ بها. وإنّ الإنسانَ يحتاجُ إلى إعمالِ البصيرةِ اللازمة حتّى في الفعلِ الذي يَختارُه لِنفسِه، بمعنى أن يكون اشتغالُه بهذا العملِ دون غيرِه بحسبِ أهميّة هذا العملِ وعلى وفقِ موازينِ الضرورة. فقبلَ اختيارِه لهذا العملِ وجعلِه على عُهدته، ينبغي عليه أن يصلِ في أعماقِ نفسِه إلى الاعتقادِ بأهميّة هذا العملِ وأولويّتِه على سائرِ الأعمالِ، كي تكونَ لديه حجّةٌ أمامَ الله تعالَى. ومن هُنا يمكنُ اعتبارُ تشخيصِ الوظيفة من أهمِّ مراحلِ اكتسابِ البصيرةِ. ففي الجمهوريّةِ الإسلاميّةِ، كما في دولِ العالمِ الأخرى، لا زالَ هناكَ الكثيرُ من الأمورِ التي ينبغي إنجازُها، والتي لم تُنجَز حتّى الآن، خاصّةً وأنَّ ثورَتنا المُباركةَ ثورةٌ يافِعة وفي ريعانِ شبابِها، وأنّنا نفتقرُ في الكثيرِ الميادِين إلى الأفرادِ المتخصّصينَ، لذلك لا بد أن نُشخّصَ بواسطةِ البصيرةِ الأعمالَ التي ينبغي الإتيان بها، والمَيادينَ التي تحوزُ أولويّةً على سائرِ الميادين.

إنّ معرفةَ الموقعيّة من أجل اتّخاذِ القرارِ المُناسبِ تستحوذُ دائمًا على أهميّة خاصّة، فعندمَا يكونُ الطريقُ واضحًا كلَّ الوضوحِ ولا إبهامَ فيه، وتكونُ أساليبُ الطرفِ المُقابلِ مشخصّةً تمامَ التشخيص، لا يكونُ الانتصارُ بهذه الصعوبة. كما في مسابقاتِ المُصارعةِ، حيثُ إنّ المُصارِعَ الذي يعرفُ خصمَه جيّدًا يجهّزُ مُسبقًا الأساليبَ والحركات التي سواجِه بها أيّ حركةٍ يقومُ بها خصمُه، أمّا إذا كان جاهلًا بخصمِه وأساليبه فإنّه

سيقعُ في المشاكِل أثناء مواجهته. وإنّ الذي يَسعى في سبيلِ إدراكِ هذه المسائلِ وفهمِها بشكلٍ صحيحٍ، هو في الحقيقةِ مُجاهدٌ في سبيلِ الله.

إنّ مصدرَ كلّ ابتلاءات وامتحاناتِ البشرِ هو الله تعالى، وغايتُه منها بناءُ روحِ الإنسان، وإلّا فإنّ الله لا يحتاجُ إلى قِتالِنا وتضحياتنا، بل بمقدورِه أن يقلبَ الأمورَ رأسًا على عقبٍ بواسطةِ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[١]، إلّا أنّه هيّأ هذا الطّريقَ كأرضيّةٍ لتقويةِ الإنسانِ وإيصالِه إلى رُشده. ومن هنا، كلّما كانَ إدراكُنا لهذه المسائلِ أعمق، كانَ ذلكَ سببًا في تقويتنا ورشدِنا، وإن كان الكثيرُ من هذه المسائل والموقعيّاتِ يستلزمُ الصّبر. وإنّ مجرّدَ بُلوغِنا هذا الرّشدَ هو بحدّ ذاته انتصارٌ لنا. وقد تقتضي الظروفُ والموقعيّةُ أحيانًا أن يصبرَ الإنسانُ حينَ لا يقدرُ على القيامِ بأيّ شيءٍ. فطريقُ وصولِ الإنسانِ إلى رشدِه لا ينحصرُ دائمًا بالتحرّكِ والثورة، بل لا بدّ في بعضِ الأحيانِ من السكوتِ والصبر، وفي هذه الصورة تَقوى في الإنسانِ روحُ العبوديّة، ذلك لأنّ رشدَ الإنسانِ كامنٌ في طاعته لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وللأئمّة الأطهار عليهم السلام.

ومن هُنا، نرى شخصًا مثلَ أمير المؤمنين عليه السلام لم يشهَر سيفَه لمدّة خمسٍ وعشرين سنة، مع كلّ الحوادثِ التي وقعت، حتّى وصلَ الأمرُ في النهايةِ وفي زمن خلافةِ عثمان إلى أن أدركَ أضعفُ المؤمنين ما تَشهدُهُ بلادُ المسلمينَ فثاروا ضدَّ عثمان وقتلوه. غيرَ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام، مع أنّه كان طوالَ هذه المدّة على درايةٍ بكلّ ما يحصلُ من خيانةٍ وظلم، أدركَ أنّ ظروفَ هذه المرحلةِ تقتضي الصبرَ، وذلك نراه يقولُ: «صَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا»[٢]. وإنّ ثوابَ صبرِه هذا ليس بأقلّ

(١) سورة البقرة، الآية ١١٧.

(٢) السريف الرصي، **نهج البلاغة**، الخطبة ٣.

من ثوابِ إشهارِ سيفه في بدرٍ وحُنَين، فلا ينبغي لأحدٍ أن يتوهّمَ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان في تلك المرحلةِ جالسًا ولا يؤدّي أيّ وظيفةٍ، إذ إنّ غصّتَهُ هذه ليست بالعملِ الهيّنِ والقليلِ.

وفي هذا المجالِ، فإنّ كلَّ ما نفكّرُ، ونتأمّلُ، ونبحثُ، ونتشاورُ، ونحقّقُ فيه هو في حدّ ذاته عبادةٌ وبحكمِ الجهاد في سبيل الله، ولا ينبغي أن نتصوّر أنّ هذه النشاطاتِ ليستَ بالعملِ المهم. ومن أهمّ النماذجِ في زماننا المُعاصِر، يمكننا أن نذكرَ الإمام الخمينيّ قدس سره. حيثّ إنّ الإمام طوالَ فترةِ حياة آية الله البروجردي رحمه الله لم يقدم على أيّ عملٍ سياسيّ، ولكنّه بعد ارتحال آية الله البروجردي بدأ شيئًا فشيئًا بتمهيدِ أرضيّة الثورة المُباركة وفي البدايةِ ضمنَ حدّ إصدارِ البياناتِ. ولم يكن دورُ الإمامِ قدس سره في زمن آية الله البروجردي دورًا لا قيمةَ له، إذ إنَّ ذلك التفكّرَ والعبادةَ والاجتهادَ العلميّ والتحقيقيّ في تلك المرحلة، هو الذي صنعَ شخصيّة الإمام قدس سره تمهيدًا لانتصارِ الثورةِ وقيادته للجمهوريّة بل للعالم بأسرِه.

وعليه، ففي طريقِ اكتساب البصيرةِ وارتقائها لا ينبغي أن نُعطيَ للأعمالِ «الكيفيّة» أهميّةً قليلة. وإنّ على كلّ شخصٍ، وبالمقدارِ الذي يستطيع، أن يرتقيَ ببصيرته وبصيرةِ الآخرين فيما يرتبطُ بالتعرّفِ على أصلِ الإسلام، وكذلك فيما يرتبطُ بالتعرّفِ على التكاليف التي ينبغي القيامُ بها، وإنّ هذا التعريف والتبيين هو في حدّ ذاته من زمرةِ أعظمِ العبادات. فالشخصُ الذي يشتغلُ في تبيينِ هذه المسائلِ وفقَ ما يقتضيهِ تكليفُه، وبالطبع ضمنَ الأُطرِ التي يحدّدُها سماحةُ القائدِ دام ظله، يقومُ في الحقيقةِ بعبادةٍ عظيمةٍ وجِهادٍ رفيعِ الشأنِ. إلّا أنّه ينبغي في هذا المسيرِ التنبّهُ والحذرُ لئلّا نُبتلَى بالغرورِ، فنعطي الأهميّةَ لآرائنا فقط، بل من

الضروريّ أن نستفيدَ من آراء أصحابِ النّظرِ ورؤاهم. وبالإضافة إلى هذا، ينبغي الحذرُ من الوقوع في فخّ طلبِ الرّاحة والتماسِ التبريرات والأعذارِ لأفعالنا، فحتّى لو سَكتنَا في مكانٍ من الأمكنة يجبُ أن لا يكونَ سكوتُنا طلبًا للرّاحة. نعم، في الكثير من المواقفِ قد تقتضي المصلحةُ سكوتَنا.

وممّا يجدرُ الالتفاتُ إليه أنّ الإفشاءَ قد يكونُ في بعضِ الأحيانِ مفيدًا. تُعتبرُ مسألةُ التقيّة في الأحكامِ الفقهيّةِ من المسائلِ التي لا تقبلُ الإنكارَ عند الشيعةِ، وقد جاءَ في بعضِ الرواياتِ عن الإمام الصّادق عليه السلام: «التَّقِيَّة دِينِي وَدِينُ آبَائِي»[1]، ومع ذلكَ نرى أنّ بعضَ الأشخاص في زمنِ الأئمّة عليهم السلام لم يعملوا بالتقيّةَ ورغم ذلك كانت أفعالهم موردَ تأييدِ الأئمّة عليهم السلام. فعلى سبيلِ المثالِ، يُروى أنّ الحجّاج بن يوسف الثقفيّ أمرَ بإحضارِ أحدِ كبارِ شخصيّات الشيعةِ وهو سعيد بن جبير (رض) وأمَـرَهُ بشتمِ أمير المؤمنين عليه السلام، إلّا أنّه بدأ بمدحه فهدّدَه الحّجاجُ بسحبِ لسانِه ما لم يمتثل لأمرِه، وما كان جوابُه إلّا أن قالَ: «وأيُّ فخرٍ أعظمُ من هذا!»، فأمرَ الحجّاجُ الجلّادَ بثَقبِ عُنقِه من الخلفِ وإخراجِ لسانِه من تلك الجهة، وهكذا فارقَ سعيدٌ هذه الدّنيا ضاحكًا. وإنّ حادثةَ سعيد بن جبير (رض) هي مجرّدُ مثالٍ للكثيرِ من الحوادثِ التي كانَ يؤمَرُ فيها الشيعةُ بشتمِ أميرِ المؤمنين عليه السلام، إلّا أنّهم كانوا لا يمتنعونَ عن شتمِه فحسب، بل ويعمدون إلى مدحه والثناءِ عليه. ويمكنُ أن نرى نظيرًا لهذه الحوادثِ في زيارة سيّد الشهداء عليه السلام أيضًا، فقد خسرَ الكثيرُ من الزائرين أيديَهم وأرجلَهم بل وأرواحَهم أيضًا، إلّا أنّهم لم يتركوا زيارةَ الإمام الحسين عليه السلام، وبقيت كربلاءُ بفضلِ هذه المَلاحِم كربلاءَ التي نعرفها، وإلّا ما كانَ أحدٌ منّا ليعرِفَ كربلاء.

---

(١) أحمد بن محمّد بن خالد البرقي، **المحاسن**، الجزء ١، الصفحة ٢٥٥.

وليسَ المُرادُ من هذا الكلامِ بالطبع تجويزَ الإقدامِ على فعلٍ من دونِ أخذِ الظروفِ المحيطةِ بعينِ الاعتبارِ، بل المرادُ أنّ الظروفَ الحادثةَ قد تقتضي في بعضِ الأحيانِ أنّ الشخصَ إذا كانَ صاحبَ نظرٍ أو لديه إجازةٌ وأمرٌ من القائد، بإمكانه بمثلِ هذه الإقدامات أن يقومَ بعملٍ يكونُ أثرُهُ أكبرَ من أثرِ سنواتٍ من المواجهة، وحتّى لو اشتغلَ بتأليفِ العديدِ من الكتبِ لما أمكنَهُ أن يتركَ أثرًا بهذا الحجم. ومن هُنا، فإنّنا في طريق أداءِ تكليفِنا لا نصلُ أبدًا إلى طريقٍ مسدودٍ، فلا ينبغي أن يثيرَ قلقَنَا توهّمُ إمكانِ أن يأتيَ يومٌ تُكبَّلُ فيه أيدينا ولا نستطيعُ القيامَ بأيِّ وظيفة، فحتّى هدايةُ شخصٍ واحدٍ قد تكونُ في مكانٍ من الأمكنةِ ذاتَ أثرٍ عظيمٍ، ذلكَ لأنّ هذا العالمَ قد صُمّمَ أساسًا كي يكونَ مكانَ هدايةِ البشرِ بواسطةِ الإسلامِ ومعارفه من جهةٍ، وتأديةِ الوظائفِ الإسلاميّةِ، والاجتماعيّةِ، والسياسيّةِ من جهةٍ أخرى.

وفي المحصّلة، فإنّ وظيفةَ الجميعِ هي السّعيُ في سبيل ارتقاءِ البصيرة، وإنّ واحدةً من أهمّ وسائل اكتسابها هي المعرفةُ الدّقيقةُ بالموضوعاتِ، والإدراكُ الصّحيحُ للظروفِ والموقعيّاتِ المُختلفةِ، والاستفادةُ الجيّدةُ من الفرصِ المتوفّرةِ. وإنّ تجربةَ سنواتِ ما بعدَ الثورةِ المُباركةِ، وعلى وجه الخصوصِ فتنةَ العام ١٣٨٨ هـ ش، تُشيرُ بوضوحٍ إلى أنّ تفرّغَ أهلِ العلمِ للدراسةِ فقط، لا يُمكنهُ أن يحلَّ مشكلاتِ المُجتمعِ. وإنّه ولو كانَ على أهلِ العلمِ أن يجتهدوا في سبيلِ الارتقاء بالمعارفِ العقائديّة والأخلاقيّة والقيميّةِ، ومعرفةِ الأحكامِ الإسلاميّة، إلّا أنّ عليهم إلى جانبِ البُعدِ المعرفيّ هذا أن يجتهدوا في معرفةِ الموضوعاتِ جيّدًا، أي أن يعلموا في أيّ ميدانٍ ينبغي إجراءُ كلَّ حكمٍ من الأحكامِ الإسلاميّة. وإنّ هذا الأمرَ ليسَ من نوعِ المسائلِ التي تذكرُها الكُتُب الدرسيّة، وهو الذي يُشيرُ إليه القائدُ دام ظله تحتَ عنوانِ «اكتساب البصيرة».

[ومن الأمثلةِ على ضرورةِ تشخيصِ الموضوعاتِ ومعرفتِها، أنّه قد يظهرُ من بعض النصوصِ][1] أنّ الإسلامَ دينُ رأفةٍ ورحمةٍ وصفح. فآياتٌ من قبيل ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[2]، و﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾[3]، و﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[4]، وغيرِها من الآياتِ، هي بصددِ ترسيم جنبةٍ من الدين الإسلاميّ. ولكن من جهةٍ أخرى نرى أنّ القسوةَ والشدّةَ قد طُرِحَت في الدين أيضًا، ففريضةُ الجهادِ مثلًا من جملةِ الفرائضِ الدينيّة التي تُتيحُ للمسلمينَ استخدامَ السلاحِ، واستخدامَ السلاحِ سيؤدّي بطبيعةِ الحال إلى إراقة الدماء، وهذا ما حصلَ في تاريخِ الإسلامِ وفي زمنِ الرسول الأكرمِ ﷺ، حيثُ شهدت المدينةُ المنوّرةُ قطعَ العديدِ من الرؤوس، وقد كان قسمٌ كبيرٌ منها بيدِ أمير المؤمنين عليه السلام. وقد ورد في التاريخ أنه بسببِ نقضِ بني قريظةَ للعهدِ مع المسلمينَ وتحالفِهم مع أعداءِ الإسلامِ، جاءَ أمرُ الله لرسوله ﷺ بالانتقامِ منهم.

وفي عهدِ أمير المؤمنين عليه السلام، شهدت الدولة الإسلاميّة في المدّة القصيرةِ من حكومته الظاهريّةِ - أي الأربع سنواتٍ وتسعَة شهورٍ - ثلاثَ معاركَ كُبرى، وفي واحدةٍ من هذه المعاركِ كانَ أكثرُ الذين وقفوا في مواجهةِ أمير المؤمنين عليه السلام من أصحابِه السابقين. إذ إنّ الذين أشهروا سيوفَهم بوجه أمير المؤمنين عليه السلام في معركة النهروان هم أؤلئك الذين

---

(١) ما بين قوسين من إضافات المترجم، أما الترجمة الحرفيّة لكلام الشيخ (حفظه الله): «وفي هذا الصّدد يمكن لمثالٍ أن يُظهِرَ أنّ الإسلامَ..».

(٢) سورة النور، الآية ٢٢.

(٣) سورة النساء، الآية ١٢٨.

(٤) سورة الأنفال، الآية ١.

حاربوا في ركابه عليه السلام في معركة صفّين وغيرِها من المعارك. وقد كان خوارجُ النهروانِ رجالًا مسلمين في الظاهر، مقدّسين، حافظين للقرآن، مُؤدّين للصلاة حتّى ملأت جِباهَهم الثّفناتُ، إلّا أنّهم في النهاية حاربوا أمير المؤمنين عليه السلام حتّى قتلَ الكثيرَ منهم. لم يكن الخوارجُ من تاركي الصّلاة ولا من المشركينَ ولا من المنافقينَ، ولكنّهم عندما طغَوا ضدّ حكومة أمير المؤمنين عليه السلام من أجل إسقاطها، قتلَ أربعة آلافِ رجلٍ منهم وعندها قال: «إِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَة»[1]. ومن هنا نرى أنّ الإسلام دينُ رأفةٍ ورحمةٍ، وفي نفسِ الوقتِ هو دينُ قسوةٍ وغلظٍ وشدّةٍ، ولا بدَّ من امتلاكِ قدرةٍ عاليةٍ على تشخيصِ الموضوعات كي نُدرِكَ في كلّ موقفٍ أيّ الطريقين نسلكُ. هل علينا في الفتنِ أن نتصرّفَ برأفةٍ ورحمةٍ مع مَن يسعى لإسقاط الجمهوريّة الإسلاميّةِ وأن نتركَه في حريّة من أمرِه، أم علينا أن نُظهِرَ الغلظة والشدّة؟؟ إذ لم يأتِ في الكتاب والسنّة ما يتعلّقُ بشخصٍ معيّنٍ أو قضيّة خاصّةٍ، فالقرآن لم يُخبرنا كيفَ نتصرّفُ في الفتنةِ الفلانيّة في الزمان الفلانيّ والمكانِ الفلانيّ، ولا يوجدُ حديثٌ يخبرُنا كيف نتصرّفُ مع الشخص الفلانيّ أو الفئة الفلانيّة التي ستُقدِمُ على إهانةِ المقدّساتِ في يوم عاشوراء على خلفيّة أحداثِ فتنة العام ١٣٨٨ هـ ش. بل إنّ ما جاءَ في الكتاب والسنّةِ هي أحكامٌ كليّةٌ ينبغي تطبيقُها على مواردها وأحداثها في كلّ زمـانٍ ومكانٍ، وإنّ تشخيصَ مواردِ العفو وموارد الانتقامِ يحتاجُ إلى البصيرة، واكتسابُ هذه البصيرةِ لا يتحقّقُ بسهولةٍ بل يتطلّب فهمًا جيّدًا واستعدادًا ووضوحًا في الرّؤيةِ وذكاءً خاصًّا، ويحتاجُ أيضًا إلى نظرٍ عميقٍ في تاريخِ الإسلامِ وسيرة النبي

---

(١) السريف الرصى، **نهج البلاغة**، الحطبه ٩٣.

الأكرم ﷺ والأئمّة عليهم السلام، وتجربةٍ ومعرفةٍ عميقةٍ بالمسائل والقضايا السياسيّة، وقدرةً على تحليلِ هذه المسائل.

هـ. اجتناب الوقوعِ في الغرور والضعف

نَقَعُ في مسيرنا هذا دائمًا تحتَ تهديدِ خطرَينِ مهمَّين، الخطرُ الأوّل أن نُبتلى أثناءَ أدائنا لوظائفنا بالغرورِ، والثاني أن نُصابَ بالوهنِ والضعفِ عن أداء وظائفنا، مع أنّنا يجبُ أن نمتثلَ لكلّ ما يُريدُهُ الله منّا، وأن نضحّيَ ولو بأرواحَنا فداءً لهذا الطريق. بالطبع إنّ طريقَنا هذا محفوفٌ بالصّعاب، فمنَ الممكنِ في بعضِ الأحيانِ أن نتعرّضَ للاتّهام، أو أن نُستَهدَفَ بحملاتِ التشهير والشّتم. فقد ألصقوا بالأنبياء عليهم السلام أشكالَ التّهمِ وجعلوهم عُرضةً للتهجّم والتهكُّم، ونسبوا إليهم الكثيرَ من الصفات القبيحةِ كـ«المجنون» و«الشاعر»، حتّى بلغَ الأمرُ أن نسبوا إليهم أسوأ الصفاتِ الرذيلةِ وغير الأخلاقيّة. إذ تُشيرُ الآية الشريفة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[1] إلى تعرّضِ النبيّ موسى - على نبيّنا وآله وعليه السلام - أيضًا إلى نسبةِ الصفاتِ الرذيلة إليه.

و. تفادي النظرة السّطحيّة

من الأسئلة المُهمّةِ التي تُطرحُ أحيانًا في هذا الصدد: «ما هو المِلاكُ الواقعيّ أو المرجعُ في تشخيصِ البصيرةِ بحق؟ كيف يمكنُ معرفةُ ما إذا كان الفردُ من أهل البصيرة أم لا؟». فإن كانَ المِلاكُ في تحديدِ البصيرةِ هو نسبةُ الذَكاء العالية، فإنّنا نرى أشخاصًا أذكى إلّا أنهم قطعًا ليسوا من

---

(١) سوره الأحراب، الآبه ٦٩.

أهلِ البصيرة. وإذا كان المعيارُ هو التجربةُ الطويلة، فإنّ بصيرةَ بعضِ الأشخاصِ من ذوي التجربةِ السياسيّة الطويلةِ أضعفُ بكثيرٍ من بصيرةِ بعضِ الأشخاصِ ممّن لا باعَ لهم في السياسة. هذا وإنّ البعضَ قد يستطيعُ تحليلَ المسائلِ السياسيّة جيّدًا إلّا أنّه لا يتمتّعُ بالبصيرة اللازمة. وإنّنا لنعلمُ أنّ توصياتِ القائد ﺩﺍﻡﻇﻠﻪ بضرورة اكتسابِ البصيرة في زمن فتنة العام ١٣٨٨ هـ ش، كانت موجّهةً لمثلِ هذه الشخصيّات. لأنّ في تلك المرحلة كان يوجدُ أشخاصٌ بهذه الصفات والخصائص لم تكن لديهم البصيرةُ اللازمة في زمن الفتنة. ويُستفادُ من كلام القائد ﺩﺍﻡﻇﻠﻪ في مرحلة الفتنة أنّه لم يكن يرى أثرًا للبصيرة عند مجموعةٍ من الشخصيّاتِ التي كانت تحسبُ نفسَها من أهلِ البصيرةِ بسببِ تجربتِها السياسيّةِ الطويلةِ.

والآن، كيف يتأتّى لنا أن نصدرَ الحكمَ الصحيح في هذا الصدد؟؟

لا شكّ ولا ريبَ في أنّ العُمدةَ الأساسيّةَ للبصيرةِ هي «الفكر». فالبصيرةُ هي الرؤيةُ العميقةُ في مقابلِ الرؤيةِ السطحيّة. في بعضِ الأحيان قد يكونُ للإنسانِ تجاه الحوادثِ المُحيطةِ به إدراكاتٌ ابتدائيّة وأحكامٌ سطحيّةٌ، ولكن في أحيانٍ أخرى قد يصلُ إلى عمقٍ من أعماقِ هذه الحوادثِ، وهنا يكونُ قد وصلَ إلى مرتبةٍ من البصيرة. وإنّ الذي يمضي أكثر وأكثر في هذا الطريقِ يُدركُ ويرى أعماقًا أخرى للحوادث، وعندها يكونُ قد ظفرَ بمرتبةٍ أعمقَ من البصيرةِ. وهذا يُشبهُ ما جاءَ في الروايةِ عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَهْرًا وَبَطْنًا وَلِبَطْنِهِ بَطْنٌ إِلَى سَبْعَةِ أَبْطُنٍ»[١].

(١) ابن أبي جمهور الإحسائي، **عوالي اللئالي**، الجزء ٤، الصفحة ١٠٧.

وعليه، لا يُمكنُ دائمًا الاكتفاءُ بظواهرِ المسائلِ، لا بدّ من الورودِ إلى أعماقِها بمقدارٍ معيّن ومُشاهدةِ بواطِنها وأعماقِها، وخاصّةً في الأوقاتِ التي تُطرحُ فيها دسائسُ ومكائدُ من قِبَلِ أشخاصٍ يمتلكون مئاتَ السنين من التجربةِ في مجالِ نصب المكائدِ، إذ يوجدُ أشخاصٌ يُخفونَ أغراضَهم الخبيثةَ في أعماقِ بعضِ المسائلِ، وفَنُّهم هو التدليسُ والكذبُ بشكلٍ يُخدَعُ به الناس. ومن الممكنِ أن يكونَ هؤلاء مصداقًا من مصاديقِ قوله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ»[1]. فعندمَا تكونُ المواجهةُ قائمةً مع أفرادٍ يمتلكون مثلَ هذه السوابقِ الشيطانيّةِ المُخادعةِ، فلا بدّ من توخّي الحذرِ لأنَّ اتّباع الأحكام السطحيّة في مثلِ هذه الظروفِ لا يمكنُ أن يكونَ كافيًا على الإطلاق، بل لا بدَّ من السعي للوصولِ إلى أعماقِ المسائلِ وإدراكِها، وإعمالِ العقلِ والفكرِ مهما أمكَنَ، والتعرّفِ على بواطِنِ المسائلِ.

وإذا كانت البصيرةُ بمعنى إعمالِ العقلِ والفكرِ، فإنّ الطرفَ الذي يواجهنا ليس جاهِلًا فاقدًا للعقلِ والفكر، بل قد يكونُ لديهِ من الذكاء العالي، والفكر، والاستدلالِ، والتحصيل العلميّ، والتجربة الطويلةِ ما ليس لدينا، لذلك ينبغي الالتفاتُ إلى أنّ قوّة الفكرِ بمثابةِ أداةٍ ووسيلةٍ، إذا وُظّفَت في الطريق الصحيحِ أثمرت نتائجَ حسنةً، وإن استُفيدَ منها في الباطلِ نتجَ عنها خططُ شؤمٍ خسيسة، لذلك لا يمكنُ أن نُوفَّقَ لاكتسابِ البصيرةِ من خلالِ الفكرِ فقط، بل ينبغي السعيُ أيضًا لتوظيفِ هذا الفكرِ في مكانِه الصحيح، واستعمالِ قوى العقلِ عندَ ظهور المُشكلاتِ كي لا نقعَ في فخّ الأخطاء والمُغالطاتِ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧.

ز. إرجاع المُتشابهات إلى المُحكمات واليقينيّات

منح أجلِ أن نَبقى مُصانينَ عن الوقوع في الأخطاء والاشتباهات والمُغالطاتِ في مُختَلفِ الحوادثِ والوقائعِ المحيطة بنا، يُرشِدُنا القرآنُ الكريمُ إلى طريقٍ يمكن سلوكُه في العلومِ العقليّة والنقليّة على حدّ سواء، وفي تحليلِ وتفسيرِ الوقائع. ومفادُ هذا الطريقِ أنّ مَعارِفَنا لا تَخلوا من أحَدِ أمرَين: إمّا أن تكونَ من المُحكمَاتِ وإمّا أن تكونَ من المُتشابِهات. ذلكَ لأنَّ بعضَ الأمورِ واضح إلى درجةٍ يستغني معها المرء في فهمه عن التفكيرِ وإعمالِ النظرِ، أما البعضَ الآخرَ فمعقّدٌ ومُبهمٌ، ولا بدّ من بذلِ الجهدِ للوصولِ إلى أعماقه. فينبغي على أهلِ الفكرِ من علماءِ الحديثِ والمُجتهدين أن يرجعوا أوّلًا إلى اليقينيّاتِ، وعلى المفسّرينَ أيضًا أن يعودوا إلى المُحكماتِ في تفسيرِ آياتِ القرآنِ الكريمِ، وأن يفسّروا الآياتِ المُتشابهاتِ على ضوءِ هذه المُحكماتِ. يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾(١).

وفي العلومِ العقليّةِ أيضًا لا بدَّ علينَا أن نشرَعَ في بَحثِنَا من المُقدّماتِ اليقينيّةِ، وأن نُعالجَ بواسطتِها الظنيّات والمشكوكاتِ من القضايا. وكذلكَ في الوقائعِ التي نواجهُها لا محيصَ عن البدءِ من الأمورِ المُحكمةِ الواضحةِ كي نتمكّن من الكشفِ عن الأمورِ المُعقّدةِ والمُبهمةِ.

إنّ هذا الطريقَ طريقٌ كلّيٌ ينبغي سلوكُه واتّباعه في كلّ الموارِدِ، إذ إنّنا لو بدأنا في حلّ أيّ مسألةٍ من المُتشابهاتِ، لن نصلِ إلى أيّ نتيجةٍ،

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧.

كما في المُعادلاتِ الرياضيّة، التي لو بدأ الرياضيُّ بحلّها من المشكوكاتِ أو المجهولاتِ لما أمكنَهُ حلُّها والوصولُ إلى النتيجةِ الصحيحةِ، بينما لو سلكَ طريقَ المعلوماتِ من أجلِ حلّ هذه المُعادلةِ، فمن المُحتملِ في هذه الصورة أن يصلَ إلى النتيجةِ الصحيحةِ. في المسائلِ الاجتماعيّةِ أيضًا لدينا يقينيّاتٌ يكونُ الشكُّ فيها إمّا ناشئًا عن قصورٍ في الفهمِ أو عن غرضٍ عندَ الشاكّ، لأنّ هذه المسائلَ شديدةُ الوضوحِ بنحوٍ يجعلُ أيّ إنسانٍ منصفٍ يلتفتُ إليها.

ومن الأمثلةِ على هذه اليقينيّات الاجتماعيّة أنّك لو سألت أيّ شخصٍ مُنصفٍ، وإن لم يكن مسلمًا ولا شيعيًّا ولا مؤيّدًا للثورة الإسلاميّة، حولَ أحداثِ فتنة العام ١٣٨٨ هـ ش: «إلى أينَ كانت سهامُ هذه الفتنةِ مصوّبةً؟» فإنّ من المُمكِنِ أن تسمَعَ منه جوابًا صحيحًا. إذ إنّ تمامَ أحداثِ هذه الفتنةِ بجميعِ أشكالِها المُختلفةِ، من المعركةِ السياسيّةِ الانتخابيّةِ، إلى النشاطات الإعلاميّة، وصولًا إلى أعمالِ الشغبِ والتخريبِ وتوجيه الاتّهاماتِ والتهجّمِ على الشخصيّات، كلّها كانت تجتمعُ في نقطةٍ مشتركةٍ واحدةٍ. وهي نقطةٌ مطروحةٌ منذ بدايات الثورة الإسلاميّة، غاية ما في الأمرِ أنّها تظهرُ في كلّ زمانٍ ومكانٍ بمظهرٍ خاصّ. فمسائلُ من قبيلِ «هل إنّ رقابةَ مجلسِ صيانة الدستور استصوابيّةٌ أم استطلاعيّةٌ؟»[1] هي

---

(١) مجلسُ صيانه الدسنور أحدُ الهيئات النظيميّة الرئيسيّة في الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران. يتسكّل لمدّة ستّ سنوات من ستّة فقهاءٍ وستّةِ حقوقيّين.

مهمّته ضمانُ مطابقةِ ما يُصادقُ عليه محلس السورى الإسلاميّ مع الأحكامِ الإسلاميّة والدسنور، إذ لا سرعيّة لقرارات محلس السورى ما لم يوافق عليها مجلسُ صيانةِ الدستور، ويتولّى المجلسُ أيضًا الرقابةَ والإشرافَ على انتخابات مجلس خبراء القيادة، ورئيس الجمهوريّة، ومجلس السورى وغيرها، فيتولّى تحديدَ مدى توفّر السروط المطلوبة عند المرشّحين.

تُثيرُ صلاحيّات محلس صيانة الدستور خلافاتٍ في الجمهوريّة الإسلاميّة منذ انتصار الثورة الإسلاميّة بين وجهتَي نظر:

مسائل مطروحةٌ منذ تلك الآونة. حيث كانت لدى بعضِ السياسيّين في زمن الإمام الخميني قدس سره مشاكل جدّيةٌ مع الخبراءِ الذين قاموا بوضع القانون الأساسيّ للجمهوريّة[1]. فمن يطّلعُ على مُناظراتِ انتخابِ خبراءِ القانون الأساسيّ يجدُ أنّ بعضَ الشخصيّاتِ في تلكَ الفترةِ كانت تسعى في زيادةِ صلاحيّات رئيس الجمهوريّة، بشكلٍ يُمكّنُه من تعطيلِ مجلس الشورى الإسلاميّ ومجلسِ صيانةِ الدستورِ. وفي أيّامنا هذه، لا زالت هذه المسائلُ تُطرحُ في الميدانِ ولكن ببيانٍ آخر. فإذا ألقينَا نظرةً على أحداثِ فتنة العام ١٣٨٨ هـ ش، نرى بوضوحٍ أنّ النقطة المشتركةَ لهجومهم هي ذلك الإسلامُ الذي تُعتبرُ ولاية الفقيه مظهرًا له، إذ ليس لدى هؤلاء أيّ خلافٍ مع الإسلام الذي يدعو إلى الصلاة والصيام فقط، بل إنّ خلافهم مع الإسلام الذي يُهدّدُ منافِعهم، الإسلامِ الذي يؤكّدُ على حاكميّةِ القانون الإلهيّ، وعندما يُطرح القانونُ الإلهيّ تُطرحُ مباحثُ ولاية الفقيه والتي لا تسرّهم على الإطلاقِ.

ح. تقوية دافع البحث عن الحقيقة في النفس

إنّ إعمالَ قوّة الفكرِ لا يكفِي لوحدِه في اكتسابِ البَصيرةِ، لأنَّ قوّةَ الفكرِ هذه كَما يُمكنُ أن تُوظَّفَ في الطريقِ الصحيحِ، يُمكنُ أيضًا أن توظَّفَ

- وجهة نظر الأصوليين المحافظين: «الصلاحيّة الاستصوابيّة»، بمعنى أنّ من حقّ المجلس التدخّلَ الفعلي سواء في مقرّرات مجلس الشورى أو في الانتخابات، فبإمكان المجلسِ حينها أن يلغيَ مقرّراتِ مجلس الشورى أو أن يُبطِلَ ترشّحَ شخصٍ للانتخابات. وهذه الصلاحيّة هي المعمول بها في الوقت الحالي.

- وجهة نظر الإصلاحيين: «الصلاحيّة الاستطلاعيّة»، بمعنى أنّ صلاحيّة المجلس فقط في حدود الاستطلاع دون التدخّل الفعلي، وهذه الصلاحيّة لا تختلف عن صلاحيّة أيّ فردٍ من أفراد الشعب. والغرضُ من طرحِ هذه الصلاحيّة تخفيفُ صلاحيّات مجلس صيانة الدستور، الأمر الذي قد يسمحُ بتمريرِ مقرّراتٍ لا تُوافق أحكام الإسلام ولذلك يلقى رفضًا من المحافظين. [المترجم]

(١) أي دستور الجمهورية الإسلاميّة في إيران. [المترجم]

في طريقِ الباطِلِ. وفي الواقعِ إنَّ الشَّخصَ نَفسَهُ هو مَن عليهِ اختيارُ الجهةِ والمسيرِ الذي ينبغِي لفكرِه أن يوظِّفَ فيه، وهُنا يظهرُ دورُ الدافعِ الإنسانيّ بشكلٍ بارزٍ.

في الكثيرِ من الأوقاتِ، عندمَا يُواجِهُ الإنسانُ واقعةً مُعيّنةً، يُصدرُ في البِدايةِ حُكمًا مُطابِقًا لهوى نفسِه على هذه الواقعةِ، ومن ثمَّ يبحثُ عن توجيهٍ لهذا الحُكم، لأنَّ الإنسانَ بطبعِه باحثٌ عن كسبِ المنافِعِ لنفسِه. فعلى سبيلِ المِثالِ قد يَخطرُ في ذهنِ أحدِهِم أنّه لم وصلَ الشخصُ الفلانيُّ إلى السلطةِ، كأحدِ الأقارِبِ أو الأصدقاءِ القُدامى أو حتّى رُفقاءِ السجنِ أو الجبهةِ، فإنَّ منافعه سوفَ تؤمَّنُ هو الآخر. وبناءً على تفكيرِه هذا، يُصمّمُ أوّلًا على ضرورةِ وصولِ هذا الشخصِ إلى السلطةِ، ويسعَى بعدها لإيجادِ توجيهٍ لرغبتِه. وتَبرُزُ هذه المسألةُ أيضًا أثناءَ انتخابِ بعضِ الأفراد، فقد يكونُ الناخبُ مُعتقِدًا أنَّ مُرشّحًا ما يتمتّعُ بكفاءةٍ وأهليّةٍ أكبرَ للتصدّي لهذا المنصبِ، إلّا أنَّ تعلّقَه بمُرشّحٍ آخرَ يدفعُه لتفضيلِه على ذي الكفاءةِ. في مثلِ هذه الحالةِ لا يكونُ الإنسانُ بصددِ البحثِ عن الحقيقةِ، بل بصددِ تأمينِ رغباتِه النفسيّةِ.

شرطُ تَحققِ البصيرةِ أن نُحيي في أنفُسِنَا دافعَ البحثِ عن الحقيقةِ، وأن نبحثَ في الواقعِ عمّا يُريدُه الله مِنّا؛ لا أن نَجعَلَ من الرفقةِ وسوابِقِ الصحبةِ والمنافعِ الشخصيّةِ والحزبيّةِ مِلاكًا ومِعيارًا. فالبصيرةُ إنّما تَتحقّقُ في صورةِ وجودِ دافعِ البحث عن الحقيقةِ إلى جانبِ التفكيرِ الصحيحِ وبُعدِ النظرِ، وإلّا فمنَ المُمكنِ أن يمتلِكَ الإنسانُ ذكاءَ مُعاوية ودهاءه وأن يُفكّرَ مِثلَه بشكلٍ جيّد، ولكن يصلُ في النهايةِ إلى نفسِ مصيره ويقعُ في طريقِ الانحرافِ. فلو تمتّعَ الإنسانُ بأعلى درجات الفطنةِ، واكتسبَ المقدارَ الكافيَ من التجربةِ، ولكنَّ نواياهُ ودوافعَهُ لم تكُن سليمةً، فإنه

لَن يظفرَ بالبصيرةِ أبدًا، بل من المُحتملِ أن يُشكّلَ ضررًا يفوقُ ضررَ ذوي الاستعدادات القليلة.

وفي المُحصّلةِ، يتوقّفُ اكتسابُ البصيرةِ على الشروع من المُحكماتِ، وعندها يُشخَّصُ الأصلُ والفرعُ والمهمُ والأهمُّ، ومن بعدها لا بدَّ من معرفةِ عناصرِ الحقّ الممزوجةِ بالباطلِ وعناصرِ الباطلِ المُصاحِبةِ للحقّ، وفي النهايةِ ينبغي إصلاحُ الدافِع وهو الأهمُّ.

ط. التفسير الصحيح والدقيق للمفاهيمِ ذات الوجهَين الموقعة في الخطأ

إنّ أحدَ أهمّ طرقِ انحرافِ الإنسانِ بواسطةِ الشيطانِ، وإيجادِ الحُجُبِ أمامَ عينِه الباطنيّة، هو سوءُ الاستفادةِ من بعضِ المفاهيم. إذ إنَّ بعضَ المفاهيمِ ذاتُ وجهين، وفاقدةٌ للتعريفِ الدقيقِ والواضحِ ذي الأُطُرِ والحدودِ المُشخّصةِ، والذي يُمكنُ للجميعِ تطبيقُهُ على مصاديقِه. ومع أنَّ لمثلِ هذه المفاهيمِ مصاديق حقيقيّةً يُبيّنها القرآنُ الكريمُ والأنبياءُ الإلهيّون والعُقلاءُ من البشرِ، إلّا أنّ البعضَ يسعَى في استعمالِ هذه المفاهيمِ في مصاديقَ مُغايرةٍ [تنسجمُ مع أهوائهم][1].

ومن هذه المفاهيم مفهومُ «الحريّة»؛ فـ«الحريّةُ» مفهومٌ جميلٌ ومُحبَّبٌ عندَ جميعِ الناسِ. يعتقدُ البعضُ أنّ المُرادَ من الحريّةِ هو إطلاقُ سراحِ عُصفورٍ مثلًا بعدَما كان مسجونًا في قَفَصه، أو الإفراجُ عن رجلٍ بعدمَا كان قابعًا في السجنِ الانفرادي. وإنَّ تصوّرَ هؤلاءِ عن الحريّةِ محدودٌ جدًّا، ومع ذلكَ فإنَّ لفظَ الحريّةِ مُحبّبٌ إلى درجةٍ تجعل حتّى هذا المعنى المحدودَ منه مطلوبًا للإنسانِ بطبعِه. في أدبيّاتنا الدينيّة

---

(١) ما بين قوسين من إضافات المترجم.

تُستعملُ كلمةُ الحريّة في واحدٍ من مصاديقها، والذي يشيرُ إلى أنّ الإنسانَ الحرَّ هو الإنسانُ المُتحرّرُ من قيودِ الدنيا. وتُعتبرُ الحريّةُ من القيمِ الأخلاقيّة الرفيعةِ حتّى اعتبرَها بعضُ أعاظمِ الأخلاقِ أصلَ تمامِ الفضائلِ.

وتُطالعنا في كلماتِ المعصومين عليهم السلام عباراتٌ كثيرةٌ في هذا المجالِ، حيث يقولُ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام: «أَلَا حُرٌّ يَدَعُ هَذِهِ اللُّمَاظَةَ لِأَهْلِهَا، إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةَ فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا»[١]. حيثُ يُشبّهُ أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكلامِ الدنيا بالبضاعةِ البخسةِ الرديئةِ، ويقول: «ألا يوجدُ حرٌّ يتركُ هذه الدّنيا لأهلِها ولا يكترثُ لها!!»، فوفقَ كلامِ أميرِ المؤمنينَ عليه السلام الحرُّ هو من يحرّرُ نفسَه من أسرِ هذه الدنيا والتعلّقِ بها. وكذلكَ الإمامُ الحسين عليه السلام حيثُ قال للحرّ بن يزيد الرياحيّ إجلالًا وتكريمًا له عندَ استشهادِه: «أنتَ حُرٌّ كما سمّيتَ في الدُّنيا والآخرة»[٢].

وفي مكانٍ آخرَ يقولُ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام: «إِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ وَإِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ وَإِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللهَ شُكْرًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ»[٣].

وعلى هذا الأساسِ تنقسمُ العبادةُ إلى أقسامٍ ثلاث، القسمُ الأوّلُ هو عبادةُ الباحثينَ عن تجارةٍ مع الله تعالى كي يحصلوا في المُقابلِ على أجرٍ وربحٍ، فهؤلاء يؤدّون صلاتَهم على أملِ الحصولِ على الثواب والتنعمِ بنعَمِ الجنّةِ. والقسمُ الثاني من العبادة هو «عبادة العبيد» الذين يعبدون

---

(١) السريف الرضي، **نهج البلاغة**، الحكمة ٤٥٦.

(٢) محمد بن علي بن حسن بن بابويه القمّي، **الأمالي**، الصفحة ٢٢٣.

(٣) السريف الرضي، **نهج البلاغة**، الحكمة ٢٣٧.

الله تعالى بسببِ خوفِهم من نارِ جهّنم. وأمّا القسم الثالثُ فهو «عبادة الأحرارِ»، وهم الذين يعبدون اللهَ لِذاته سبحانه وتعالى، فهو الحبيب، ولذلكَ يعبدونه حُبًّا لَه أو شُكرًا لنَعمائه. هؤلاء الأشخاص أحرارٌ لأنّهم حرّروا أنفسَهم من القيودِ فعبدوا الله تعالى من أجلِ رِضاه.

وفي المحصّلة، فإنّ الحريّةَ مفهومٌ مُقدّسٌ، ومن المفاهيم العظيمةِ والممدوحةِ في ثقافتنا الدينيّة، إلّا أنَّ البشرَ قد أساؤوا الاستفادة منه على طول التاريخ. ففي أيّامنا هذه يُرادُ من الحريّة في الثقافة العالميّة أنّ بإمكانِ أيّ شخصٍ القيامُ بأيّ فعلٍ يريدُه من دونِ أن يردَعَه شيءٌ، إلّا إن تَعارضَ فعلُه مع حريّة الآخرين. وإنّ أساسَ التفكير الليبرالي قائمٌ على هذا الأمرِ، ولذلك يدّعونَ أنّ أفضلَ الحكوماتِ هي التي توفّر لشعبِها أرضيّةً تسمحُ للإنسانِ بالقيامِ بكلّ ما يريده.

ومن المفاهيم المُشابهةِ للحريّة، مفاهيمُ «المُداراة» و«التساهُل» و«التسامُح» أو «التسامح الفكري»[1]، والتي تُعتبرُ من المفاهيم الجميلةِ إلّا أنّها تعرّضَت لسوءِ الاستفادة أيضًا. إذ يُلقي الشيطانُ هذه الألفاظ على ألسنِ البعضِ بهدفِ تحقيقِ أغراضه. فترويجُ المُداراة والتساهُلِ والتسامحِ كان من أوّل المباحث الاستراتيجيّة المطروحة في البِلاد والذي شكّل أرضيّةَ مؤامرةٍ وحَربٍ ناعمةٍ ضدّ الجمهوريّة الإسلاميّة، إذ سعَى البعضُ من خلالِ الاستفادةِ من هذه الألفاظِ إلى إضعافِ الحماسةِ والغيرةِ الدينيّة عند الناس، والوصولِ إلى مطامعِه من خلالِ هذا الطريق. وقد جَعلوا في مُقابلِ هذه المفاهيمِ مفاهيمَ من قبيلِ «الإرهـابِ» و«العُنفِ» بغرضِ ترويجِ المفاهيم التي يريدونها. حتّى أنّ عددًا الشخصيّات التي تولّت

(1) Tolerance.

بعضَ الوزاراتِ في فترة الإصلاحات[١] كانَت تسعى في سبيلِ تشكيلِ رأيٍ عامّ مفادُه: «إمّا أن نكونَ مُتطرّفينَ إرهابيّينَ، وإمّا أن نكونَ مُتساهلينَ مُتسامحينَ"، لأنّهم كانوا على درايةٍ بأنّهم لن يتمكّنوا من بلوغِ أهدافِهم ما دامت الحماسةُ الدينيّةُ عند الشعبِ صلبةً، ولذلكَ سعوا، بمُختلفِ الأساليبِ والطرقِ، إلى ترويجِ ثقافةِ التساهلِ والتسامحِ في المجتمعِ، من أجل ضمانِ استمرارِ استئثارهم بالسلطةِ والمُضيّ قُدمًا بسياستهم الثقافيّةِ الناشئةِ من هذا الفِكر. ومِن جُملةِ الأساليبِ التي اعتمدوها من أجلِ ترويجِ سياسةِ التساهلِ والتسامحِ هذه: عرض الأفلامِ المُبتذلةِ، وتنظيمِ الجلساتِ المختلطةِ بين الرجالِ والنساء، وطباعة ونشر الكُتبِ والمقالاتِ المُروّجة للثقافة الغربيّة المُنحطّة، وإقامةِ المُحاضراتِ وغيرها من الفعاليّات.

وإنّ واحدًا من أهمّ السُّبلِ التي اتّبعَها هؤلاء في ترويج أفكارِهم هيَ طرحُهُم لقضيّةِ أنّ الإسلامَ دينُ المحبّةِ والرحمة والاعتدالِ، كي يتمكّنوا من توظيفِ المفاهيمِ الدينيّة في خدمةِ أهدافِهم. فيستندونَ على سبيل المثالِ إلى حديثِ الرسولِ الأكرم ﷺ: «لَمْ يُرسِلنِي اللهُ بالرَّهبَانيّةِ ولكنْ بَعَثَنِي بالحَنِيفَةِ السَّهلَةِ السَّمحة»[٢].

فيطرحون، من خلال التفنّنِ في الكلامِ واللعبِ على الألفاظ، فكرةَ أنَّ كَلمتَي «سمحة» و«تسامح» وكذلكَ كَلمتَي «سهلة» و«تساهل» من أصلٍ

(١) «فترة الإصلاحات» كما يسمّبها أتباع التيّار الإصلاحي، و«فترة الإصلاحات الأمريكيّة» كما يسمّيها المحافظون. وهي فترة حكمِ الرئيس الإيراني الأسبق «محمود خاتمي» التي امتدّت من العام ١٩٩٧ م إلى العام ٢٠٠٥ م. [المترجم]

(٢) محمّد بن يعقوب الكليني، **الكافي**، الجزء ٥، الصفحة ٤٩٤.

وجذرٍ واحدٍ ويدلّانِ على معنًى مُشتركٍ، ومن هُنا فإنَّ الإسلامَ هو دينُ التساهلِ والتسامحِ والمداراةِ، لا دينُ الخُشونةِ والقسوةِ.

وبالإضافةِ إلى هذه الروايةِ الشريفةِ، يستندونَ أيضًا إلى العديدِ من الآياتِ والرواياتِ الأخرى، كي يستفيدوا من عباراتِها ويوظّفوها في طريقِ الوصولِ إلى أغراضِهم. ومن خلالِ الاستفادةِ مِن هذه العِبارَاتِ يُروّجونَ من جهةٍ لمفاهيمَ من قبيلِ المُرونةِ، والاعتدالِ، والمُداراةِ، والصَّفحِ والرّحمةِ وأمثالِها، ومن جهةٍ أُخرى يُهاجمونَ ويذمّونَ مفاهيمَ مِن قبيلِ العُنفِ والقَسوةِ. حتّى يَصلَ بهم الأمرُ إلى تسميةِ خُصومِهم «دُّعاة العنفِ». وتراهُم تحتَ عنوانِ التسامحِ الفكريّ يُدافعونَ عن أمورٍ نعتبرُها دياثةً وحقارةً، ويسعون لترويجها في المجتمعات، مستفيدينَ في ذلكَ أيضًا من الألفاظ ذاتِ المفاهيم المُحبّبة، ولكن بمعانٍ قبيحةٍ وخاطئةٍ.

وعليهِ، فإنَّ اللَعبَ بالألفاظِ والكلماتِ أمرٌ خطيرٌ، ولا بُدّ من إعمالِ البصيرةِ والفطنةِ اللّازمَين من أجلِ مواجهتِه، ولا بُدّ أيضًا في مثلِ هذه المواردِ من مُراعاةِ الدّقةِ والتأمّلِ، فعندمَا يستعملُ شخصٌ ما لفظًا خاصًّا لا بدَّ أن نتساءل: «بأيّ قصدٍ ونيّة يستعمله؟؟ وإلى أينَ يُريدُ أن يصلَ من خلالِ تأكيدِه على مثل هذه الألفاظ؟؟». ولو أنّ البصيرةَ أُعمِلَت في تلكَ المرحلةِ التي كان فيها وزير الثقافةِ والإرشاد الإسلاميّ في حكومةِ الإصلاحاتِ[١] يقومُ هو وأعوانُه بترويجِ مفاهيم التساهلِ والتسامح، لما تأخّرَ بنا الأمرُ لأكثرَ من عشرِ سنوات من تلك المرحلةِ حتّى نُدركَ ما جلبته من مصائبَ للثقافة الإسلاميّة بسببِ مفاهيمِ الحريّة والمُداراة والتسامحِ والتساهل.

---

(١) أي حكومة الرئبس الإيراني الأسبق محمود خاتمي التي استمرّت من العام ١٩٩٧ م إلى العام ٢٠٠٥ م. [المترجم]

ولا تزالُ أرضيّةُ المُغالطاتِ والخِداعِ وسوءِ الاستفادةِ من المفاهيم خصبةً وواسعةً في أيّامنا هذه، من خلالِ استعمالِ مثل هذه الألفاظِ. ومن أجلِ النجاةِ من الوقوع في هذه المكائدِ، لا بدّ علينا في كلّ واقعةٍ نواجهُ فيها مثلَ هذه المفاهيم أن نَسألَ: «استعمالُ العنفِ مع مَن؟ ووفقَ أيّ أساسٍ؟ وعبر أيّ طريقٍ وأسلوبٍ؟ واللجوءُ إلى المُداراةِ مع مَن؟ وحولَ أيّ أمرٍ؟».

ومن هنَا ينبغِي علينَا تشخيصُ حدودِ المُداراةِ والعُنفِ بشكلٍ كاملٍ، إذ ليس من الصوابِ أن نلهَجَ دائمًا بذكرِ المُداراةِ والمُرونةِ. فلو تنبّهَ الإنسانُ في منتصفِ الليلِ أنّ شخصًا أجنبيًّا تهجَّمَ على زوجَتِه، فهَل مِن المَعقولِ في مثلِ هذه الصورةِ أن نتحدَّثَ عن المُداراة؟ أو أن يُطلَبَ عدمُ استخدامِ العُنفِ مع هذا الأجنبيّ المُعتدي؟ ولو عَزَمت قُوى الاستكبارِ على إبادةِ ثرواتِنا ودينِنا وفضائلِنا الأخلاقيّة فهل يمكنُ السكوت عن ذلكَ بحجّة المُداراة والتسامح؟ وأن لا نُظهِرَ أيّ غيرةٍ أو شهامةٍ أو حَماسٍ كي يتمّكنوا من تحقيقِ ما يريدون؟

لذا، عندمَا نُسأَلُ عمّا إذا كان العنفُ مرفوضًا أم لا، ينبغي أن نجيبَ بأنَّ هذا الحكمَ يختلفُ باختلافِ الظروف، فبعضُ الظروف يقتضي المُداراة وبعضُها يقتضي العُنف. والمُهمُّ ههنا هو تشخيصُ مواردِ المرونةِ والعُنف. فمن يتهجّمُ على الدين ينبغي أن يُواجَهَ بجديّة وقسوة، ولذلك كانت الشدّةُ وعدمُ اللّينِ مُقابلَ الأعداء أوّلَ صفةٍ نسبَها القرآنُ الكريمُ لأصحاب الرسول ﷺ، حيث قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[1].

---

(١) سوره الفتح، الآيه ٢٩.

وبناءً عليه، ينبغي توظيفُ كلّ مفهومٍ في موارده الخاصّة، فمعَ المؤمنين والمُقرّبينَ والأصدقاءِ والباحثينَ عنِ الحقّ والحقيقةِ وحتّى معَ الغارقينَ في الأخطاءِ والاشتباهاتِ ينبغي اعتمادُ المداراة واللّين، بينَما لا مكانَ لهذه المُداراة والمُرونةِ مع الذين لا يألونَ جهدًا في سبيلِ إسقاطِ نظامِنا الإسلاميّ وجعلِ استقلالِ بلادنا في خطرٍ عن علمٍ وعمدٍ وقصدٍ، والذينَ يُجاهرونَ بخِيانتِهم وعَمالتهم مع أعداء الإسلامِ.

ولقد بَيَّنَ القُرآنُ بصراحةٍ أنّ من يرتكبُ ذنبًا في خلوتِه من غيرِ أن يلتفت إليه أحـدٌ، فلا يجوزُ التجسّسُ عليه، حيثُ يقولُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَ لَا تَجَسَّسُواْ﴾[1]. أمّا من يرتكبُ الزّنا - والعياذُ بالله - ويشهدُ عليه أربعةٌ من العُدولِ، فهَل يُمكنُ في هذه الحالةِ الدعوةُ إلى المُداراةِ واللّين وأن نطلبَ الصفحَ من القاضي؟ هُنا يُجيبُ القرآن الكريم: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، فبأمرٍ من الله تَعالى ينبغي أن يُجلَدَ هذا الشخصُ مئة جلدةٍ أمامَ أعيُنِ الخلقِ، لا في السّجنِ ولا في الخَفاءِ، كي يتردعَ عن هذا الأمرِ. إذًا لا ينبغي أن نرفعَ اليدَ عن إجراءِ الحدودِ الإلهيّة بحجّة أنّ الإسلامَ دينُ رأفةٍ ورحمةٍ، بل ينبغي في مثلِ هذه الموارِدِ إظهارُ الغلظةِ والشدّةِ. وبالطّبعِ، لا بدّ من رعايةِ الحدودِ الإلهيّة أثناءَ التوسّلِ بالغلظةِ والشدّةِ، ومن هُنا فإن ضُربَ الزاني جلدةً إضافيّةً استحقّ ضّاربُه جلدةً.

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٢.

(٢) سورة النور، الآية ٢.

وفي المُحصّلةِ ينبغي أن نُدقّقَ أكثر في مثلِ هذه الأمـورِ، وأن نُشخّصَ المواضِعَ التي ينبغي توظيفُ كلّ مفهومٍ فيها، ذلك لأنّ من شأنِ الخطأ في تبديلِ هذه المواضع أن يكونَ باعثًا على خسارةِ المرءِ لبصيرته وانخداعِه بمكائد الشيطان. وإنّ من عوامل اكتسابِ البصيرة، بالإضافةِ إلى الإدركِ الصحيحِ للمعارِف الدينيّة، معرفةُ الخططِ الشيطانيّة جيّدًا. وفي غيرِ هذه الصورةِ، إذا كان اطّلاعُ الفردِ على التعاليمِ الإسلاميّة ضعيفًا، ولا يقتدرُ على تشخيصِ مواضع الرأفةِ والعُنفِ فإنّ الشيطان سيتمكّن من خِداعه وإخراجِه عن مسيرِ البصيرة.

ي. أخذ العبر من التاريخ

من أجلِ اكتسابِ البصيرةِ يُمكنُ الاستفادةُ من الوقائعِ التاريخيّةِ. وقد جاء في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لولدِه الإمام الحسنِ عليه السلام: «وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ، فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ»[1].

إنّ من شأنِ سيرةِ الماضينَ أن تُشكّلَ شُعلةً تُنيرُ طريقِ القادِمينَ، وإنَّ ما يُصيّرُ هذا الأمرَ المهمَّ مُمكنًا هو أن يتلقّى البشرُ رسالةَ التاريخِ، وأن تَعتبرَ قلوبُهم. ووفقًا لما جاءَ في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام، ينبغي التدبّرُ في سيرةِ الماضينَ، كي نَعرفَ كم مِن شخصٍ كان يعيشُ في هذه الدنيا حياةً إنسانيّةً شريفةً، وسُرعانَ ما تسافَلَ وتَهاوىَ في حُفَرِ الذلّة والحقارةِ، فنالَ سوء العاقبةِ، وكم مِن شخصٍ بَلَغَ أعلى مدارجِ الكمالِ

(١) السريف الرصي، **نهج البلاغة**، الرسالة ٣١.

بفضلِ رعايتِهِ لآدابِ الحياة الإنسانيّة، وحثَّ السيرَ نحو حضرةِ الحقّ برأسٍ مرفوعٍ، وحازَ السُكنى في مَقامِ القربِ الإلهيّ. من هُنا، ينبغي على الإنسانِ البحثُ في آثارِ وأفعالِ الماضينَ ومُطالعتُها، والتأمّلُ في الأمورِ التي أوجبت أن يحيى بعضُ البشرِ بعزّةٍ في دُنياهم وأن يسقطَ آخرونَ في الذلّ والهوانِ، فيسعَى في اكتسابِ موجباتِ السعادةِ وتجنّبِ موجباتِ الشقاءِ. وبتعبيرٍ آخر، لا بدَّ للإنسانُ من الاعتبارِ من الماضينَ، كما أوصانَا القرآنُ في العديدِ من آياته بهذا الأمر: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾[(١)].

إنَّ غرضَ القُرآنِ الكريمِ من ذكرِه لبعضِ القصصِ التاريخيّة هو أن تعتبرَ الأُممُ اللاحقةُ وأن تستفيدَ من هذه القصصِ في حياتِها.

إنّ منَ الضروري في أيّامنا هذه أن نُطالِعَ تاريخَنا، إذ إنّ المرحلةَ التي نمرُّ بها اليومَ تسنجمُ إلى حدّ كبير مع مرحلةِ ثورةِ المشروطة[(٢)]، وفي هذه الصورةِ، إن واجهنَا أثناءَ مُطالعتنا تلك العواملِ والتوجّهاتِ التي وجّهت ضربةً قاسيةً لثورةِ المشروطة والتي تَسبّبت بالضررِ على المجتمعِ، فينبغي علينَا البحثُ عنها أيضًا في زمانِنا الحاضرِ، فهل إنَّ لهذه التوجّهاتِ وجودًا في مجتمعِنا اليوم أو لا؟؟ وهل يمكنُ لهذه التوجّهاتِ أن تكونَ منشأً لانحرافِ الثورة الإسلاميّة؟؟

---

(١) سورة الروم، الآية ٤٢.

(٢) ثورة المشروطة أو ما يعرف بالثورة الدستورية الإيرانية التي وقعت بين العام ١٩٠٥ م و١٩٠٧ م في السنواتِ الأخيرة من العهد القاجاريّ في إيرانٍ، والتي نتج عنها إجراء انتخاباتٍ لتأسيس مجلسِ شورى يقومُ بصياغة دستورٍ إيرانيّ. [المترجم]

ك. معرفة سبل مواجهة مؤامرات العدوّ

إنَّ الاعـتـداءاتِ التي تتعرَّضُ لها الـدول، والإسلاميّةُ منها على وجهِ الخصوص، إنّما تتمُّ بواسطةِ أساليبَ وطُرُقٍ مُعقّدةٍ، بحيثُ لا يمكنُ في هذه المواردِ إلّا لأهلِ الاختصاصِ وعَميقي النظرِ أن يكتشفوا دسائسَ العدوّ وأن يعرفوا سُبُلَ مواجهتِه. ومن هُنَا، فإنّ لبحثِ معرفةِ العدوّ أهميّةً كبيرةً في اكتسابِ البصيرةِ. ولذلك سوف نسعى هنا إلى تبيينِ سُبُلِ مواجهةِ العدوّ ضُمنَ عدّة مراحل.

١. معرفةُ العدوّ

من أجلِ مُواجهةِ مؤامراتِ العدوّ لا بدّ من طيّ مجموعةٍ من المراحلِ؛ المرحلةُ الأولى هي الوصولُ إلى معرفةٍ عميقةٍ بالعدوّ. في الماضي كانت معرفةُ العدوّ أسهلَ ممّا هي عليهِ في هذه الأيّام، فقد كان الذين يُشهرونَ سيوفَهم ويعتدونَ على حدودِ دولةٍ ما، يُعلنونَ عداءَهم على الملأ. ولكن في هذه الأيّامِ أصبحَ للعداءِ أنواعٌ وأنواع، وقليلونَ هم الأعداءُ الذين يُظهرونَ وجهَ العداءِ ويُجاهرونَ بالبغضاءِ تجاه شعبٍ أو دولةٍ ما، فيعلنونَ على الملأ أنّ غرضَهم هو إسقاطُ النظامِ الفُلانيّ، أو يُقرّون رسميًّا في مجلسِ النوابِ ميزانيّةً بغرضِ إسقاطه. هذه الأساليب غدَت في أيّامنا هذه صبيانيّةً ولا تُجدي نفعًا، وقلّما تُعتمدُ من قِبَلِ السياسيّين في عالمنا، بل إنّ أغلبهم بات يعتمدُ أساليبَ مُعقّدةً في إظهارِ عدائهم عمليًّا. فهم في بعضِ الأحيانِ لا يُبرزونَ عداءَهم للشعوبِ، بل حتّى إنّهم يُظهرونَ دَعمهم ونُصرتَهم ومُساندتَهم لهَا.

على أيّـةِ حـالٍ، فإنّ لإظهارِ العداءِ أساليبَ مُختلفة، وإنّ الذين يُمارسون عداءَهم تجاه الدول الإسلاميّة وخاصّةً تجاه «أمّ القرى» في

العالم الإسلامي، أي الجمهوريّة الإسلاميّة، يعملونَ دائمًا بهيئةٍ مغايرةٍ، ويظهرونَ في الميدانِ بوجوهٍ مختلفةٍ، ولذلكَ تَتَطلّبُ معرفةُ هؤلاء الأشخاصِ فنًّا ومهارةً خاصّتَين. فعلى سبيلِ المِثال، عندمَا قال الإمامُ الخميني قدّس سرّه كلمته الشهيرةَ: «وجّهوا كلَّ صَرَخاتكم ضدَّ أمريكا»، تعجَّبَ كثيرٌ من السياسيّينَ المُخضرمينَ وحتّى الثوريّين منهم، معتقدينَ أنّ هذا التعبيرَ مُبالغٌ فيه، ذلك لأنّ دولةَ الشرقِ الكُبرى كانت في ذلك الزمانِ لا تزالُ موجودةً ولديها في داخلِ الجمهوريّةِ مجموعاتٌ مُرتبطةٌ بها. ولكنّ مقولةَ الإمامِ قدّس سرّه هذه كانت مُبتنيةً على البصيرةِ والفراسةِ الإلهيّتَين اللّتَينِ كان يزخرُ بِهما. فلقد عرفَ الإمامُ حتّى في تلكِ المرحلةِ العدوَّ الأساسيَّ أكثرَ من أيِّ أحدٍ. وعليهِ فإنّ معرفةَ العدوّ في حدّ ذاتها مسألةٌ في غايةِ الأهميّة، ولا تتحقّقُ بمُجرّدِ الحضورِ في دروسِ اختصاص العلومِ السياسيّةِ فيصبحُ الفردُ أكثرَ قُدرةً على معرفةِ عدوّه، بل إنّها مُبتنيةٌ على اكتسابِ التجاربِ السياسيّةِ المُتعدّدةِ بالإضافةِ إلى امتلاكِ الفراسةِ الإلهيّة. وعليهِ فإنّ الخُطوةَ الأولى في سبيلِ الدفاعِ ودرءِ أخطارِ الأعداء هي معرفةُ العدوّ.

٢. معرفة عناصرِ نفوذ العدوّ

المَرحلةُ الثانيةُ من مراحلِ مواجهةِ مؤامراتِ الأعداءِ هي معرفةُ عُملاءِ العدوّ ووُكلائه وعناصرِ نفوذِه داخلَ المُجتمعِ الإسلاميّ. فالتجاربُ على طولِ التاريخ، وكذلكَ تجاربُ السنواتِ الأخيرةِ من عمرِ الجمهوريّة الإسلاميّة، تشيرُ إلى أنّ العدوَّ الخارجيّ لا يُمكنُ أن يُحقّقَ أغراضَه من دون ارتباطٍ مع جهاتٍ داخليّة. وقد استفادَ أعداءُ الإسلام في مرحلةِ صدرِ الإسلامِ من مثلِ هذه الأساليب، إذ يقولُ الله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ

لَهُمْ﴾[١]، حيث يُنبّهُ القرآنُ الكريمُ في هذه الآية الشريفةِ المسلمينَ إلى أنّ العدوّ قد زرعَ بين صفوفِهم أفرادًا مُنافقينَ جواسيسَ، بهدفِ نقلِ أسرارِ المُسلمينَ إلى العدوّ الخارجيّ؛ وإنَّ هؤلاءِ الأفراد يُظهرونَ إيمانَهم دائمًا وأينما حلّوا، إلّا أنّهم يُبطنون في قلوبهم أشدَّ العداوةِ والبَغضاءَ تجاههم. ولقد كانَ وجودُ هؤلاءِ الأفرادِ المُنافقينَ في المُجتمعِ الإسلاميّ من أشدّ البلاءاتِ الّتي واجهت رسول الله ﷺ، وكذلكَ أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كانَ السُذَّجُ من الناس يعتبرونهم مِنهم. ولكن بالطبعِ كان في ذلك الزمانِ أيضًا أشخاصٌ من ذوي الفراسةِ يعرفونَ ماهيّةَ هؤلاءِ المُنافقينَ، ويرَونَ فيهم عدوًّا خطيرًا يفوقُ خطرُهُم خطرَ العدوّ الخارجيّ.

ويظهرُ من بياناتِ أمير المؤمنين عليه السلام اعتبارُ خطرِ العُملاءِ الداخليّين والقوُى المُنافِقة مُضاهيًا بأضعافٍ خطرَ الأعداء الظاهريّينَ. إذ يقول عليه السلام في رسالتِه إلى محمّد بن أبي بكر: «وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وآله إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِنًا وَلَا مُشْرِكًا أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ عَالِمِ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ»[٢].

فوفقًا لكلامه عليه السلام، فإنَّ الخطرَ الذي كانَ يقلقُ رسول الله ﷺ على الدوامِ هو وجودُ أشخاصٍ يحملون النفاقَ في قلوبهم داخلَ المجتمع الإسلاميّ، لأنّهم، وتحتَ عنوانِ الدفاعِ عن الإسلام، يُطلقونَ كلامًا ساحرًا خادعًا، وهُم في الواقع لا يعتقدون بهِ. وفي زماننا هذا، قد ترى أفرادًا

---

(١) سورة التوبة، الآية ٤٧.

(٢) السريف الرصي، **نهج البلاغة**، الرسالة ٢٧.

يتحدّثون باستمرارٍ عن التشيّعِ والثورة الإسلاميّةِ، ولكنَّ أعمالَهم تُخالفُ أقوالَهم. فتراهم يأتونَ في كلامِهم على ذكرِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المُنكرِ، وهُم في العملِ يرتكبونَ المُنكَرِ. ولكنَّ الناسَ يقعون في شراكِ مثلَ هؤلاء الأشخاصِ ويُخدعونَ بهم، بسبب مظاهرهم الإسلاميّة الخادعة، فهم في الظاهرِ من أهل الصلاة والصومِ والمُدافعينَ عن الإسلامِ والثورة، ولكنَّ قلوبَهم مع الكفّارِ وأعداءِ الإسلامِ في البَاطنِ.

وبناءً عليهِ، فإنّ الخطوة الثانيةَ في مواجهةِ أعداءِ أيّ نظام هي معرفةُ عناصِره الداخليّةِ، والعناصرِ التي ينفُذُ بواسطتها إلى أعماقِ هذا النظامِ. وإنّ هذا الأمرَ صعبٌ ويحتاجُ إلى فراسةٍ خاصّة، لأنَّ كثيرًا من الناسِ، مع أنّهم من أهلِ الصدقِ والإخلاصِ والطهارةِ والصوابِ، لا يصدّقونَ أنّ المُجتمعَ الإسلاميّ، بعد الثورة الإسلاميّة وببركة توجيهات الإمام الخميني قدس سره، من المُمكنِ أن يحويَ بينهم مجموعةً من العناصرِ المُنافقةِ الخطرة. ولكن بحمدِ الله شهدت الساحةُ المعرفيّة ارتقاءً ملحوظًا، حتّى باتت الأكثريّة الساحقةُ في مُجتمعنا تَعرفُ عدوّها ولو تسترَ بأيّ نِقابٍ، ولكن للأسفِ لا زال هناكَ أيضًا بعضُ السذّجِ الذينَ يُخدعونَ بواسطةِ بعضِ الوجوهِ والشخصيّات الصَالحةِ في الظاهرِ.

٣. معرفة دوافع العدو

ثالثُ مراحلِ مُواجهةِ العدو والقيامِ بدفاعٍ موفّقٍ بوجهِ حَملاتِه هي معرفةُ دوافعِه. إنّ الشيءَ الذي يعتبرهُ أغلب الناس دافعًا للعداوةِ، وخاصّة في الحروب، هو السيطرةُ على الخيراتِ الماديّة والاقتصاديّة. فعندما تُهاجمُ دولةٌ دولةً أخرى يكونُ غالبًا غرضُها من ذلكَ السيطرةَ على ثرواتِ هذه الدولةِ. وعليه فإنّ عمومَ الناسِ يَعتقدونَ أنّ الدافعَ الأساسيّ في عداوةِ الأعداءِ هو السيطرةُ على الخيرَاتِ الاقتصاديةِ والتسلّطُ على الخيراتِ

الطبيعيّةِ وثرواتِ المجتمعات. وبالإضافةِ إلى هذه المنافع الماديّة التي ذكرناها، يوجد بعض المنافع المادية التي تُعتبرُ منافعَ من الدرجةِ الثانيةِ، والتي من شأنِها هي الأخرى أن تكونَ أيضًا دافعًا لإشعالِ الحروبِ. ومِن الأمثلةِ على هذه المنافعِ ما كانَ يقعُ في الأزمنةِ الماضيةِ من سبيِ النساء وتصييرهنَّ جوارٍ وإماءً عندما يتغلّبُ طرفٌ على خصمِه. وعلى أيّةِ حالٍ فقد كان محورَ هذه النِزاعاتِ المنافعُ الماديّة.

ولكن، ظهرَت، منذُ قديمِ الزمانِ، للعداوةِ والحروبِ دوافعُ أخرى. وعادةً ما يغفَلُ السُذّجُ والسطحيّون عن وجودِ مثلِ هذه الدوافعِ. صحيحٌ أنّ تخاصمَ الأفرادِ في العادةِ يكونُ الغرضُ منه الوصولَ إلى المنافعِ الماديّةِ، فقد يتخاصمَ شَخصانِ من أجلِ الإرثِ أو ما شابههُ من المصالحِ الماديّةِ، وقد تصلُ الأمورُ بهما إلى ارتكابِ الجرائم في سبيلِ ذلك، إلّا أنّه لا ينبغي أن نغفلَ عن وجودِ أشخاصٍ على استعدادٍ للتضحيةِ بكلّ مصالحهم الماديّةِ في سبيل الوصولِ إلى مقامٍ أو منصبٍ ما؛ ولهذا السبب نرى البعضَ لا يتوانَى في دفعِ الأموالِ الطائلةِ وصرفِها أيّامَ الانتخاباتِ كي يصلِ لمدّةٍ مُحدّدةٍ إلى كرسيّ السُلطةِ. ذلكَ لأنَّ الشّهرةَ في الواقعِ تُمثّلُ عُنصرًا جاذبًا لمثلِ هؤلاءِ الأشخاصِ. وقد ظهرَ في صدرِ الإسلامِ أيضًا أشخاصٌ يتعمّدونَ التصرفَ بزهدٍ حتّى في خلواتِهم، فيكتفونَ من الطعامِ بالخُبزِ والملحِ أو الخبزِ والخلّ، وغرضُهُم من هذا جذبُ قلوبِ الآخرينَ نحوهم، والوصولُ إلى المحبوبيّةِ في المجتمعِ. ومن هُنا فإنَّ المنافعَ لا تنحصرُ في الأمورِ الماديّةِ من قبيل المالِ والأرضِ والثّروةِ، بل يوجدُ أيضًا عناوين من قبيلِ «الرّئيس» و«المُديرِ» و«النّائبِ» وغيرها، والتي تُعتبرُ ذاتَ قيمةٍ عاليةٍ لدى بعضِ الأشخاصِ إلى درجةِ استعدادِهم للتخلّي عن كلّ مصالحهم الماديّة والوصولِ إليها.

وإنّ هذه الحقيقةَ ليست حِكرًا على الأفـرادِ بل تنطبقُ على المُجتمعاتِ، إذ يوجدُ بعضُ المُجتمعاتِ التي تَسعى دائمًا وبأيّ ثمنٍ من أجلِ سيادةِ ورئاسةِ سائر المُجتمعاتِ واكتسابِ لقبِ «القوّة العُظمى». وعليهِ، فإنَّ أحدَ دوافـع العداوةِ هو الوصولُ إلى السّلطةِ والسّيادةِ على الآخرين. وكَما أنَّ مِن شأنِ الحسدِ في المسائلِ الفرديّةِ أن يبعثَ على العداوةِ، ففي الحسدِ يكونُ عندَ الحاسِدِ دافعٌ قويٌّ لإلحاقِ الأذى بالآخر، وإنّ أساسَ الحسدِ رغبةٌ عند الحاسِد بسلبِ المنافِعِ والنعمِ من الآخر لعدم تحمّلِ رؤيته منعّمًا بهذه المنافِع، فإنّ الحسدَ في المسائلِ الاجتماعيّةِ يُشكّلُ أيضًا دافعًا ومنشأً للعداوة، عندما لا تستطيعُ بعضُ المجتمعاتِ السائرة على طريقِ الضلالِ أن تتحمَّلَ رؤيةَ سالكي دربِ الهِدايةِ. يقول الله تَعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾[1]. فعندمَا يرى البعضُ أنّ بُلدانَهم، على الرغمِ من ثرواتِها الضخمةِ وتطوّرها الصناعي والتكنولوجي وسابقتها العلميّة الطويلةِ في ميدانِ الإدارةِ وتوفّر كلّ وسائل التقدّم الظاهريّة فيها، تُواجِهُ مشاكلَ جدّيةً بشكلٍ يجعلُ شريحةً واسعةً من أبناءِ مجتمعاتِهم في حالةِ اضطرابٍ دائم، بحيثُ لا يقدرونَ على النومِ ما لَم يستعملوا الأدويةَ المُنوّمة، وبشكلٍ يجعلُ أدويةَ الأعصابِ أكثرَ الأدويةِ استعمالًا، وذوي المشاكِلِ النفسيّة أكثرَ المَرضى عددًا، وإحصائيّاتِ النساءِ التي تتعرَّضُ للأذيّةِ من الأزواجِ والطردِ من المَنازِلِ تُسجّلُ أرقامًا تفوقُ سائرَ الدولِ، على الرغمِ من كلِّ المساعِي التي بذلوها من أجلِ إقرار المُساواةِ بين الجِنسَين، فعندمَا يرى هؤلاء كلَّ هذا الكمّ من المشاكلِ التي تُصيبُ مُجتمعاتِهم، لا يتحمّلونَ أن

---

(١) سورة النساء، الآية ٨٩.

يرَوا تلك البُلدانَ المُتأخّرةَ عنهم مادّيًا تعيشُ في أمنٍ وراحةٍ وهُدوءٍ، لذلك يحثّونَ جهدَهم في نقلِ مشاكلِ مُجتماعتهم إلى تلك المُجتمعات.

ومِنَ الدوافِعِ الأخرى للعداوةِ، وهو أهمُّ من سائرِ الدوافعِ، مسألةٌ تُعتَبرُ فوقَ الأسباب العاديّةِ. إذ إنَّ أوّلَ من يُعرّفُ القرآن الكريمُ عنهُ بعنوانِ عدوّ للإنسانِ هو الشيطانِ، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾[1]. فإبليسُ هو قوّةٌ غيرُ عاديّةٍ، ولديه دافعٌ أساسيّ وهو إغواءُ جميعِ البشرِ وإضلالِهم، ويحقّقُ دافعَهُ هذا بالاستعانةِ بأعوانِه وأوليائه الموجودين بين الناس، أي شياطين الإنسِ. إنّنا نعتقدُ أنّه وإلى جانبِ بني آدمَ عليه السلام توجدُ موجوداتٌ وَسواسةٌ كانَ قد أقسمَ رئيسُها فِي المَاضي أن يُضلَّ كلَّ البشرِ حين قالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[2]. فإبليسُ هذا قد أقسمَ صراحةً أمامَ الله تعالى أنّه سيُغوي كلَّ بني البشرِ، باستثناءِ مجموعةٍ واحدةٍ كانَ يعلمُ أن لا سُلطانَ لهُ عليهم، وليس باستطاعتِه إضلالُهم، وهم المعصومون عليهم السلام. ووفقًا للآية المُباركةِ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾[3]، فإنَّ إبليسَ يتحرّكُ في البدايةِ باتّجاه أولئكِ الذينَ يُسلّمونَه زِمامَ أمورهم باختيارِهم، فيتعرّفُ عليهم أوّلًا، ومِن ثمّ يُوسوسُ لهم ويُصيّرُهم أداوتٍ بين يديهِ وظيفتهم إضلالُ الآخرين. وشياطينُ الإنسِ هؤلاءِ ليسوا فقط من الذين يلهثونَ وراءَ منافِعهم المادّيةِ، بل إنَّ مُواجهةَ طريقِ الحقّ ودعوةِ الأنبياءِ عليهم السلام وإقامةِ العدلِ تُمثّلُ بحدّ ذاتها هدفًا أساسيًّا بالنسبةِ لهم.

---

(١) سورة فاطر، الآية ٦.

(٢) سورة ص، الآيتان ٨٢ و٨٣.

(٣) سوره النحل، الآيتان ٩٩ و١٠٠.

بدأت عداوةُ إبليسَ مع البشرِ منذُ أن أمرَه الله تعالى بالسجود لآدمَ عليه السلام، حيثُ أبى ذلك وعصى أمر ربّه، بل وجاء باستدلالٍ يؤيّدُ عِصيانَه وتمرّده، فهوَ مخلوقٌ من جنسِ النار، وآدمُ مخلوقٌ من الطينِ، والنارُ أشرفُ من الطينِ، فهوَ أشرفُ من آدمَ. يقول الله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ﴾[1]. وبِسببِ تَمرّده هذا وعصيانه أمْرَ الله تعالى طُرِدَ من رحمةِ الله وحقّت عليهِ لعنتُه: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[2].

وقد كانَ تمرّدُ إبليسَ هذا ولعنتُه منشأَ عدائه لآدم عليه السلام ومن بعدهِ لكلّ أبنائه ونسلِه إلى يومِ القيامةِ. وفي الحقيقةِ إنَّ منشأَ هذا العداء هو تكبّرُ إبليسَ وحسدُه، إذ رأى نَفسَه موجودًا أرفعَ من آدم وأشرف منه، ولكنّ الله تعالى لم يكن يراه أشرفَ منه، وهكذا بنى إبليسُ بُنيانَ عدائه للإنسانِ. وإنّ مثلَ هذا الدافعِ نحو العداءِ موجودٌ بين البشرِ أنفسهم وليس مُختصًّا بإبليسَ، ففي الكثيرِ من المواردِ يكون الحسدُ منشأً للعداء، بل إنّ جريمةَ القتلِ الأولى التي شهدتها الإنسانيّة، وهي قتلُ قابيلَ لأخيه هابيلَ، كانَت جذورُها تعودُ إلى الحسدِ، فقد قدّمَ كلٌّ من الأخوينِ قُربانًا، فتقبّلَ الله من هابيل ولم يتقبّل من قابيلَ، ولذلك هدّدَ قابيلُ أخاه بالقتلِ. يقول اللهُ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[3]. ومَع أنَّ هابيلَ لم يُلحق بأخيه أيَّ ضررٍ، إلّا أنّ قابيلَ

---

(١) سورة الحجر، الآيتان ٣٢ و٣٣

(٢) سورة الحجر، الآيتان ٣٤ و٣٥.

(٣) سورة المائدة، الآية ٢٧.

أقدَمَ على قتلِ أخيه حسدًا. وقد بيّنَ هابيلُ لأخيهِ أنَّ سببَ تقبّلِ الله لقربانِه فقط يعودُ إلى التقوى التي كان يتحلّى بها. من هُنا، فإنّ العداوةَ قد تنشأُ من وجودِ عاملٍ نفسانيّ عندَ الإنسانِ، حتّى لو لم يُلحق الآخرون أيّ أذيّةٍ أو ضرر بهِ، بل حتّى لو لم يكن لديهم أيّ نيّة أو قصدٍ في ذلك. ولكنَّ الإنسانَ قد يقعُ في فخّ الحسد والعداءِ. ولقد كانت هذه المسألة على الدوامِ وما زالت عاملًا أساسيًّا في تكوّنِ العداوات، وتعودُ إليها جذورُ الكثيرِ من الحروبِ كالحروبِ العالميّة، والكثيرِ من سفكِ الدماء. فكم من حربٍ وقعت بسببِ خلافٍ من طرفَين منشؤهُ حسدُ أحدِهما للآخرِ أو التكبّرِ عليه.

وهُنا يمكنُنا أيضًا استكشافُ نوعٍ آخر من أنواعِ العداوةِ. فبعدمَا بنى إبليسُ بنيانه على إعلانِ عدائه للإنسان إلى يوم القيامةِ، وبعدَما وعدَ، بالإضافة إلى عداءه، أنّ يُضلَّ كلَّ بني البشرِ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١]، ها هوَ الآنَ بسببِ عدائه الشخصيّ لآدمَ عليه السلام بصددِ رسم خططٍ متنوّعةٍ من أجلِ إيقاعِ العداوةِ والبغضاءِ بين البشرِ. فعلى سبيلِ المِثالِ يرى القرآنُ الكريمُ أنّ شربَ الخمرِ ولعبِ القمارِ من وسائلِ إبليسَ العلنيّةِ التي يستخدمُها في إيقاع العداوةِ بين البشرِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[٢]. وعليهِ، يوجدُ نوعٌ من العداوةِ بين البشرِ يُهيّئُ إبليسُ وسائلَها وأدواتِها ويَضعها في تصرّف البشر. وبالإضافةِ إلى الأدواتِ التي ذكرناها، يمتلكُ إبليسُ مجموعةً من

(١) سورة الإسراء، الآية ٦٢.

(٢) سورة المائدة، الآية ٩١.

الأدواتِ والوسائلِ الأخرى لإيقاعِ العداوة والبغضاءِ بين البشر، كالوسائل السياسيّةِ والاجتماعيّة والاقتصاديّة وغيرها.

بالإضافةِ إلى المواردِ التي ذكرناها، يتحدّثُ القرآنُ الكريمُ والرواياتُ الشريفةُ عن مواردَ من العداواتِ، تصدرُ فيها العداوةُ والخصومةُ من أشخاصٍ ليس لديهم أيُّ قصدٍ للأذيّة. فعلى سبيلِ المثالِ تُشير الآية الشريفةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] إلى واحدٍ من المطالبِ المُهمّةِ والتي تَخفى أهميّتها عن أنظارِ البشرِ. إذ قلّما يُتصوّرُ أن يتحولَّ ولدُ الإنسان أو زوجتُه إلى عدوّ له، بل إنّ الاعتقادَ السائدَ ينفي إمكانيّةَ وقوعِ العداوةِ إطلاقًا مع الأقاربِ المقرّبينَ، وخاصّةً الأب والأم. فالأبُ والأمُّ يخدمانِ ولدَهما على الدوام، وكلُّ ما لدى الولدِ من أبيه وأمّـه، فكيفَ يُمكنُ للعداوةِ أن تجدِ طريقًا إليهم؟ وينبغي الآنَ أن نكتشفَ السببَ الذي جعلَ القرآنَ الكريمَ يضعُ اليدَ على هذه المسألةِ نادرةِ الحدوث. بالطبعِ يوجدُ في آياتِ أخرى تعبيراتٌ أكثرُ مُرونةً واعتدالًا، ففي آيةٍ أخرى اعتبرَ القرآنُ الكريمُ الأموالَ والأولادَ فتنةً: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2]. ولكنّ التعبير الذي ورد في تلكَ الآيةِ - أي العداوة - يستحقُّ الوقوفَ عليهِ والتدقيقَ فيه.

من أجلِ اكتشافِ دوافعِ العداوة هذه بشكلٍ أفضل، من المُفيدِ أن نذكرَ الحديثَ النبويّ الشريف: «أعْدى عَدُّوِكَ نَفْسُكَ الّتي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»[3].

---

(١) سورة التغابن، الآية ١٤.

(٢) سورة التغابن، الآيه ١٥.

(٣) ابن أبى جمهور الأحسائي، **عوالي اللئالي**، الجزء ٤، الصفحة ١١٨.

فوفقَ هذا الحديثِ فإنّ هذه النفسَ الكامنةَ في أعماقِ الإنسانِ وقالِبه هي أعدى أعدائه. ولكن أيُّ عداوةٍ هي عداوةُ نفسِ الإنسانِ له؟ وما سببُ هذه العداوة؟ هل رأت نفسُ الإنسانَ أذًى منهُ وهي الآنَ تنهضُ لمواجهتِه؟ ومِنَ المُصادفةِ أنّ هذه النقطةَ الأساسيّةَ تدورُ حولها الكثيرُ من المباحثِ الأخلاقيّةِ، وقد تحدّثَ العلماءُ الكبارُ كثيرًا عنها، وألّفوا العديد من الكُتبِ في هذا المجالِ.

وعليه، فإنَّ هذه الأسئلةَ مطروحةٌ بشكلٍ جدّي: «ما هو السبب الذي جعلَ نفسَ الإنسانِ الكامنةَ في داخلِه أعدى أعدائه؟؟ كيفَ يُمكنُ أن يصبحَ ولدُ الإنسانِ أو زوجته أعداءً له ؟؟». بالطبعِ لم تتحدّث الآية الرابعة عشر من سورةِ التغابنِ عن جميع الأولادِ والزوجاتِ، بل أشارت بتعبيرِ ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ﴾ إلى أنّ بعضَ الزوجاتِ والأولادِ من هذا القبيل، أي أعداءٌ للإنسانِ.

ما سبب هذه العداوةِ؟ إذ إنّما يُقدمُ الشخصانِ على الزواجِ لأنّهما قد أُعجبا ببعضهما من قبلُ، ويريدانِ أن يؤسّسا لحياةٍ هنيئةٍ مُشتركةٍ، وإنّ وجودَ الولدِ بسببِ أبيه وأمّه، وخاصّةً الأم التي يُشبِهُ حُبُّها لابنها القصصَ الأسطوريّةِ، فهي لا تبخلُ عليه بالمحبّةِ منذُ أن يكونَ جنينًا في بطنِها، إلى فترةِ رضاعته وحتّى آخرِ عمره. فلماذا تقع العداوة بين الزوج وزوجته أو بين الولدِ وأمّه أو أبيه يا تُرى؟ وإنّ هذه المسألةَ عجيبةٌ ولغزٌ مُحيّرٌ أشارَ إليه القرآنُ الكريمُ. وهي حقيقة تستحقُّ التأمّلَ، فما هو منشأُ هذه العداوة؟

يبتني أساسُ أيّ عداوةٍ على أن تكونَ علاقةُ موجودٍ ذي شعورٍ وإدراكٍ - أعمّ من كونه إنسانًا أو جنّيًا أو شيطانًا - مع موجودٍ آخر ذي شعورٍ وإدراك بشكلٍ لا يَخافُ معه أحدُ الطرفينِ أن تُسبّبَ تصرّفاتُه أو

كلماتُه ضررًا وأذيّةً للطرف المُقابل. وتُقابلها المحبّةُ، والتي تقتضي أن تكونَ في الإنسانِ حالةٌ تجاهَ الطرفِ الآخر يمتنعُ بسببِها عن إرادةِ الضرر والأذيّة له، بل يُريدُ حتّى إيصالَ النفعِ إليه. وعليهِ، فليس من شروطِ العداوةِ أن يكونَ بين الطرفين حسابٌ قديمٌ، وأن يكونَ أحدُ الطرفين قد تسبّبَ فيما سبقَ بضررٍ للطرفِ الآخرِ، ويريدُ المُتضرّرُ الآنَ أن يُعوّضَ عن أضرارِه من خلال إلحاق الضرر بذلك الشخص. فآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُلحِق أيّ ضررٍ بالشيطانِ على الإطلاقِ، إلّا أنّ الشيطانَ نصبَ له العداء بسببِ الحسدِ الكَامنِ في قلبه. بل ومن المُمكنِ حتّى أن يؤدّيَ الإنسانُ خدمةً مُعيّنة لشخصٍ آخرَ، وأن لا يكونَ لديهِ أيُّ نيّةٍ سلبيّةٍ تجاهه، ومع ذلكَ قد يُلحقُ الطرفُ المُقابلَ ضررًا به لاعتقادِه أنّ هذا الإنسانَ أفضلُ منه.

ويُمثّلُ هذَا المطلبُ حقيقةً يمكنُ أن نجدَ لهَا الكثيرَ من المواردِ في مُحيطِنا. ففي الأمورِ الماديّة مثلًا، قد يمتلكُ شخصٌ من الثرواتِ ما لا يمتلكُهُ الآخرُ، فيكونُ هذا الأمرُ منشأً للحسدِ عند الطرفِ الآخر. وفي المدرسةِ قد يكونُ أحدُ التلامذةِ أفضلَ من زميلِه دراسيًّا، فتكونُ نتائجُه ودرجاتُه أعلى وكذلكَ احترامُه وتقديرُه عند الأساتذةِ، ويصبحُ هذا الأمرُ أيضًا منشأً للحسد والعداوةِ بين زُملاءِ الدراسةِ. وكذلكَ في الأمورِ المعنويّةِ، إذ إنَّ الكفّارَ يُحبّونَ أن يكفرَ المسلمونَ وأن يصبحوا مثلَهم كُفّارًا. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾[1]. فالكُفّارُ يحسدونَ المؤمنينَ على القيمِ المعنويّة التي يتحلّونَ بها، والتي لم يُوفَّقُ الكُفّارُ للوصولِ إليها.

---

(١) سورة النساء، الآية ٨٩.

وفي زَمانِنا هذا، تسعَى الدولُ الغربيّةُ لنشرِ ثقافتها في كلّ أصقاعِ العالمِ، كي يرتدي الجميعُ رداء الثقافةِ الغربيّةِ. وليس السبب في هذا الأمرِ عشقُهم لثقافتهم، فهُم في هذه الأيّام غارقونَ في مفاسدِ ثقافتهم وعاجزونَ عن حلّ مُشكلاتهم الثقافيّةِ. بل إنّ أحدَ أسبابِ رغبةِ الغربِ بنشرِ ثقافتهم في كلّ العالمِ هي رؤيتُهم للبلدانِ الأخرى التي تتمتّعُ بثقافةٍ غنيّةٍ، والتي لا تُعاني منَ الآفّاتِ الثقافيّةِ المُنتشرةِ في الدولِ الغربيّةِ، ولذلكَ يسعَى الغربُ لجرّ هذه الدولِ نحوَ التخلّف والرجعيّةِ والفسادِ.

وعلى أيّة حالٍ، فمِن أنواعِ العداوةِ، تلكَ التي تقعُ من دونِ أن يكونَ لدى الطرفِ المُقابلِ أيّ رغبةٍ في وقوعِها، ومن المُمكنِ أيضًا أن تقعَ العداوة من أن دونِ أن يكونَ لدى أيّ من الطرفَين نيةٌ لأذيّة الآخر، إلّا أنّ كلَّ طرفٍ لا يخافُ، أثناءَ بحثِه عن منافعه الشخصيّةِ، من أن يُلحِقَ ضررًا بالطرفِ الآخر. فعلى سبيلِ المثالِ، من المُمكنِ أن لا يكونَ لدى البائعِ أيُّ قصدٍ أو نيّةٍ لإيصالِ الضررِ إلى المُشتري، وليس لديه أيّ عداءٍ تجاهه، ولكن لأنّه يسعى لتحقيقِ زيادة في منافعِه يلجأُ إلى بيعِ البضاعةِ المُزيّفةِ والمغشوشةِ. فإذا كانَت هذه البضاعةُ المغشوشةُ من الموادِ الغذائيّة فإنَّ تناولَها سيؤدّي إلى مرضِ المُشتري وإلحاقِ الأذيّة والضّررِ به.

وإنَّ عداوة نفسِ الإنسانِ له من هذا القبيلِ. فالنفسُ التي تعادي الإنسانَ هي عبارةٌ عن شهواتِه وميوله الغرائزيّةِ والحيوانيّةِ، الأمرُ الذي من شأنِه أن يجرَّ الإنسانَ نحوَ البربريّةِ والوحشيّةِ. فالنفسُ تبحثُ عن تلبيةِ رغباتها الغريزيّةِ والحيوانيّةِ، ولا تعير أيّ اهتمامٍ لما قد توجبه هذه اللذات الحيوانيّة من تسافلٍ للإنسانِ وحرمانٍ من اللذاتِ المعنويّة واستحقاقٍ للعذابِ الأخـرويّ. فهذه النفسُ هي قِوانا الحَيوانيّةِ، وسرُّ

عداوتِها لنَا يكمنُ في أنّنا نُواجِهُ رغباتها غير المشروعةِ ونقفُ في وجهها. فليسَ للنفسِ إذًا عداوةٌ خاصّةٌ مع العقلِ كي تسعَى للقضاءِ عليهِ، بل إنّها تُريدُ فقط أن تمضِي قُدُمًا في تحقيقِ رغباتِها، فإن وقفَ مانعٌ في طريقِها واجهتهُ حتّى تزيله. وفي النتيجةِ، تختلفُ عداوةُ النفسِ للإنسانِ عن عداوةِ الشيطانِ له؛ فالشيطانُ لم يكن يريدُ شيئًا من الإنسانِ، بل كان يحسدُه لأنَّه أدنى منهُ رتبةً ويسألهُ: «لماذا فضّلكَ الله عليَّ؟!». أمّا عداوةُ النفسِ للإنسانِ فمنشؤها وقوفُ الإنسانِ في طريقِ وصولِ النفسِ إلى رغباتِها، فتتعارضُ الرغباتُ النفسانيّةُ والشيطانيّةُ مع الرغباتِ العقلانيّةِ والإلهيّةِ.

كُنّا قد تحدّثنا عن الموارِدِ المُتقدّمةِ في الساحةِ الفرديّة خاصّةً، فالنفسُ والشيطانُ يُمارسانَ عداءهما مع الأفـرادِ بتلكَ الدوافِعِ التي ذكرناها. وفي المُحيطِ الاجتماعيّ أيضًا يمكنُ ذكرُ هذَينِ العاملَينِ النفسيَين كمنشأٍ للعداوة بين البشر، أي إنَّ بعضَ العداواتِ تنشأُ من تفضيلِ الله لقوم على قوم ممّا يؤدّي إلى ظهورِ الحسدِ، حيث يقولُ تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[1]. إذ إنَّ اللهَ يفيضُ على من يرى فيه الصلاحَ بأمورٍ لا يُعطيها لغيرِه، ففضَّل أنبياءه بالنبوّةِ دونَ غيرِهم لأنَّ الآخرينَ لا يمتلكونَ لياقةَ النبوّةِ. ويمنحُ الله أيضًا بعضَ عبادِه الثروةَ والجمالَ وغيرها من الامتيازاتِ بسببِ مصلحةٍ وحكمةٍ عنده تعالى ولا يمنحُها لغيرهم. ولكن من شأنِ هذا الأمرِ أن يكونَ باعثًا على ظهور الحسدِ بين البشرِ. وفي بعضِ الأحيانِ قد يكونُ تعارضُ مصالحِ

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٤.

البشرِ منشأً لوقوع العداواتِ بينهم، فقد تتعارضُ أرباحُ تاجرَين ممّا يؤدّي إلى وقوعِ العداوة بينهما.

والمطلبُ الأساسيُّ في بحثِنا هو العداوة الاجتماعيّة التي تقعُ بين المجموعاتِ البشريّةِ. وإنّ مثلِ هذه العداوات غالبًا ما تنشأ من أحدِ العاملين المذكورين - أي الحسد وتعارض المصالحِ -. أحيانًا ترى مجموعةٌ بشريّةٌ أنّ مجموعةً أخرى مُوفّقةٌ أكثرَ ولديها من الامتيازاتِ ما لا تستطيعُ هذه المجموعةُ أن تصلَ إليه. وقد تكونُ الظروفُ الاجتماعيّةُ والسياسيّةُ والاقتصاديّةُ والجغرافيّةُ أحيانًا موجبةً لأن تتمتّعَ مجموعةٌ ببعضِ العطايا، فيصبحُ هذا الأمر منشأً للخصومةِ والعداوةِ بين المجموعات. وأحيانًا قد يكونُ تعارضُ منافعِ المجموعاتِ منشأَ هذه العداوةِ. إذ إنَّ قلّةَ المصادرِ والمنابعِ، وتزاحمَ المصالحِ والمنافعِ حقيقةٌ لا يمكنُ إنكارُها، فلا يمكنُ لكلّ شخصٍ أن يحصلَ على كلّ شيءٍ. ومن هنا تقعُ النزاعاتُ بين البشرِ بهدفِ تحصيلِ المنافعِ من قبيل المقامِ والمنصبِ والموقعيّةِ الاجتماعيّة.

بعدَ توضيحِ منشأ العداوة بينَ الأفـرادِ والجماعاتِ، نعودُ إلى البحثِ المرتبطِ بعداوةِ الأزواجِ والأولادِ. صحيحٌ أنّه يوجدُ الكثيرُ من الخصائصِ المشركةِ بين الزوجِ وزوجتِه، وكذلكَ بينَ الولدِ وأبيه أو أمّه، إلّا أنّه يوجدُ أيضًا خصائص شخصيّة عندَ كلّ منهم. وطالمَا تمحورَ الكلامُ حولَ الخصائصِ المشتركةِ بين الزوجِ والزوجةِ، فلا تجدُ العداوةُ طريقَها نحوهما. فالعداوةُ إنّما تقعُ بينهما عندما يرغبُ أحدُ الطرفين بالحصولِ على لذّةٍ مغايرةٍ لتلكَ التي ينالُها من شريكِه، كأن يريدَ الرجلُ الزواجَ بإمرأةٍ أخرى أو أن تريدَ الزوجةُ الزواجَ من رجلٍ آخرَ، فيكونُ هذا الأمرُ منشأً للعداوةِ بينهما. وإلّا فإنَ العلاقةَ المُشتركةَ التي تربطُهما لا يمكنُ أن تكونَ منشأً للعداوةِ، لأنهَا علاقةٌ يشتركَان فيها معًا ويلتذّان بها معًا،

ولكن عندما يريدُ أحدُ الطرفين لنفسِه علاقةً غيرَ هذه العَلاقةِ المُشتركةِ، ولا يكونُ لشريكِه وجودٌ فيها تنشأُ العداوةُ بينهما. وفيمَا يرتبطُ بالأولادِ يمكنُ أن يقالَ أيضًا إنّ الولدَ في الأصلِ يفتخرُ بأنّ له أبًا وأمًّا، وخاصّة عندمَا يكونُ للأبِ مكانةٌ اجتماعيّةٌ معيّنةٌ. هذه النقطةُ المشتركةُ لا يُمكنُ أن تكونَ منشأً للعداوةِ بين الولدِ وأبيهِ أو أمّه. ولكن لَو أرادَ الولدُ بعضَ الأمورِ لنفسه، والتي تتنافى والقيم المقبولة لدى الأسرةِ، فإنّ هذا الأمرَ يُمهّدُ أرضيَةَ النزاعِ والخلافِ والعداءِ بينَ الولدِ وأبيه وأمّه.

إنّ هذا التعارضَ في المنافعِ، والذي يُعتبرُ أحدَ المنشأين الأساسيّين لظهورِ العداوات، يمكنُ أن يقعَ في المحيطِ الضّيقِ، ويمكنُ أن يقعَ بين شخصين، ولكن قد تطالُ نيرانُه المجتمعَ كلَّه وتجرّهُ نحوَ الدّمارِ. ويمكنُ أن نستنتجَ من خلالِ تحليلِ الكثيرِ من الحوادثِ الاجتماعيّةِ المُهمّةِ في العالَم، أن الكثيرَ منها، وخاصّةً تلكَ التي أدّت إلى وقوعِ الكثيرِ من الخسائرِ، ناشئٌ من التعارضِ في المنافعِ بينَ شخصَين فقط. فالحربُ العالميّةُ الثانية والتي أودَت بحياةِ ملايين البشر، كانَ منشؤها بحسبِ ما ينقلُ المؤرّخون، خلافٌ عائليّ في أوروبا الوُسطى حولَ حُكمِ منطقةٍ مُعيّنةٍ. وسُرعانَ ما أدّى هذا الخلافُ بينَ شخصَين مقرّبَين إلى نشوبِ حربٍ انتقلَت بالتدريجِ إلى المُدنِ المُجاورةِ، ثمّ إلى البُلدانِ المُجاورةِ، حتّى امتدّت إلى العالم بأسره.

وإذَا ما حلّلنَا جيّدًا الكثيرَ من الحوادثِ التي شهدتها الجمهوريّةُ الإسلاميّة، والتي أُخفيَت تحتَ حُجُبِ الإبهام، نكتشفُ أنّه من الممكنِ أحيانًا لفردٍ أن يكونَ في موقعٍ اجتماعيّ جيّدٍ، وأن يكونَ لديه حُسنُ نيّةٍ أيضًا ويريدُ أن يقومَ بعملٍ بقصدِ خدمةِ المُجتمع، ولكن عِندمَا ترَى زوجتُه أنَّ هذا العملَ ليسَ فيه منفعةٌ عائليّةٌ، تقفُ مانعًا أمامَ تأديةِ

زوجِها لهذه الوظيفةِ التي تأتي بالنفعِ على النظامِ والمجتمعِ الإسلاميّ. وكذلكَ مِن الممكنِ أن يكونَ الأبُ بصددِ القيام بعملٍ حسنٍ يعودُ بالنفعِ على المجتمعِ، ولكن يشكّلُ رفضُ أبنائِه عائقًا أمامَه. وقد يؤدّي الأبُ خدماتٍ جمّة للنظامِ الإسلاميّ والثورةِ الإسلاميّة، ويبذلُ الكثيرَ من العناءِ والجُهدِ من أجل الشعبِ، ويحوز بفضلِ هذه الأمورِ على شرفٍ عظيمٍ، ومن ثمَّ يأتي أولادُه من بعدِه ويريقونَ ماءَ وجهه عبرَ الخيانةِ، والاختلاسِ، والسرقة وغير ذلك. ولو لمْ نر نماذجَ لهذا الأمرِ وما شابهه بأمّ أعيننا، لتعجّبنَا من تأكيدِ القرآنِ الكريمِ على قضيّةِ أنَّ بعضَ الزوجاتِ والأولادِ أعداءٌ للإنسانِ، إذ تريدُ الآية المذكورة تنبيهَنا على وجودِ خطرٍ مهمّ، فلا عجبَ لو أنّ شخصًا ساذجًا تعرّضَ للخداعِ من قبل زوجتِه أو أولاده، أمّا ذلكَ الشخصُ الذي يُعتبرُ مثالًا في الفطنةِ، ولا يُقاسِ بذكائه ذكاءُ أحدٍ، فيصعبُ تصديقُ وقوعِه في فخّ خداعِ الزوجةِ والأولادِ، وإراقَتِهم ماءَ وجهِه، وحِرمانِهم إيّاهُ من الدنيا والآخرةِ، ولكنَّ القرآنَ الكريمَ يُحذّرُنا من ذلكَ، فكلٌّ منّا معرّضٌ للسقوط في هذا الفخّ ولو كانَ حادَّ الذكاءِ والفراسةِ.

والآنَ، ما الذي نفعلُهُ كي لا نقعَ في هذا الفخّ؟ إنَّ الّذينَ تعرّضوا للسقوط في هذا الفخّ فيما سبق، فاتَت عليهِم الفُرصةُ، ولا يُمكنُ لهم أن يعيدوا ماءَ وجههم وسُمعتَهم التي خسروها. أمّا أنا وأنتَ، فيجبُ علينا الحذر كي لا يُراقَ بسبب هذا الأمرِ ماءُ وجهِنا في الدنيا والآخرةِ. والطريقُ الأساسيّ لعدمِ السقوطِ في فخّ وساوسِ أقربائنا أن نكونَ من العارفينَ بالعدوّ. وهنا تظهرُ أهميّةُ معرفةِ العدوّ. وإنّ تأكيدَ القائدِ دام ظله على ضرورة اكتسابِ البصيرةِ، معناهُ أنّه ينبغِي علينَا إدراكُ أعماقِ الحوادثِ الاجتماعيّةِ، وتجنّبُ النظرة السطحيّةِ إلى ما يحيطُ بنا. فإذا ما رأينًا شخصًا من ذوي اللسانِ العذب، ينبغي أن لا أن نتعلّقَ به مباشرةً وننخدعَ به،

بل ينبغي النظرُ إلى يجولُ في باطنِه، واكتشافُ أهدافِه الحقيقيّة وراءَ تصرّفاتِه هذه. وإن رأينَا أنّ الزوجةَ أو الأولادَ يريدونَ منّا ما يخالفُ الأصولَ والموازينَ الدينيّة، ينبغي أن نحذرَ من أن تجرَّنا محبّتهم إلى الوقوعِ في المعصيةِ، وخاصّةً لو أدّى ارتكابُ هذه المعاصِي إلى تضييعِ حقوقِ الكثيرِ من الناسِ.

عندَما يُـدركُ الإنسانُ أنَّ شخصًا يكنُّ له العداءَ، وأنّ أفعالَ هذا الشخصِ باعثةٌ على تعاستِه وشقائهِ، فإنّه لن يُصبحَ على ارتباطٍ به إطلاقًا، ولكنّ المشكلةَ تكمنُ في أن لا يشخّصَ الإنسانُ العدوَّ والصديقَ بشكلٍ صحيحٍ، إذ من الممكنِ في بعضِ الأحيانِ أن يكونَ للعداوةِ جذورٌ في العائلةِ، والمحيطِ، والأصدقاءِ، والحزبِ، وزملاءِ الدراسة، وشركاءِ العملِ، وكذلكَ الأقاربِ، الأمرُ الذي يبعثُ على سقوطِ الإنسانِ في مكائدَ تودي به إلى جهّنم في نهايةِ المطاف.

٤. معرفة وسائل إعمال العداوة وأساليبها

ورابعُ المراحلِ في مسيرِ مواجهةِ الأعداءِ أن نعرفَ وسائلَ إعمالِ العداوةِ وأساليبِها. يعتقدُ قصيرو النّظرِ أن بروزَ العداوةِ يتمُّ فقط من خلالِ إلقاءِ القنابلِ أو الصواريخِ على رؤوسِ شعوبِ الدولِ المُستهدفةِ. بالطبعِ، بعضُ أعدائنا يبرزونَ عداءهم بهذا الأسلوبِ، إلّا أنّهم لم يُوفقّوا أبدًا فيه. ولكن يوجدُ بين صفوفِ أعدائنَا سياسيّون أكثرَ نُضجًا وخبرةً، يدركونَ أنّ هذا الأسلوبَ لا يمكنُ أن يوصلَهم إلى أيّ مكانٍ. ومن هنا يسعونَ لإعمالِ عداوتِهم بواسطةِ طرقٍ أكثرَ تعقيدًا، بحيثُ لا يمكنُ مواجهتُها والتصدّي لها ما لَم نعرف وسائلَ وأساليبَ إعمالِ العداوةِ التي يعتمدُها أعداء المجتمعِ الإسلاميّ. فمن أجلِ الهيمنةِ على الآخرينَ، يعمدُ هؤلاء إلى تدميرِ اقتصادِ الدولِ تحتَ عنوانِ المساعداتِ الاقتصاديّةِ، وعلى الرغمِ من

تمتّع هذه الدولِ بثرواتٍ طبيعيّةٍ ضخمةٍ، إلّا أنّهم يحوّلونها إلى دولةٍ متخلّفةٍ. وفي المسائلِ الثقافيّةِ أيضًا يتوسّلُ هؤلاء بمختلفِ الأساليب المعقّدةِ، ويسعونَ من خلالها إلى تنفيذِ مخطّطاتهم. فعلى سبيلِ المثالِ يحقّقونَ مقاصدَهم وأغراضَهم الثقافيّةَ عبر ترويج الاستفادةِ المغلوطة من المفاهيمِ الثقافيّةِ وتحريفِها.

وإنّ أعداءَ الجمهوريّة الإسلاميّة، وإن كانوا على الدوامِ بصددِ تنفيذِ مختلفِ المؤامراتِ، إلّا أنّ كلَّ مُخطّطاتِهم، بفضلِ عنايةِ الله ورعايتِه بحقّ الشعبِ الإيرانيّ المُسلم، قد باءت بالفشلِ. ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ هذا العدوّ لن يقفَ أبدًا مكتوفَ الأيدي، بل إنّه سيعودُ إلى الميدانِ بوسائلَ وأسلحةٍ جديدةٍ، وسيقدمُ على خطواتٍ عدائيّةٍ أخرى ورسمِ مؤامراتٍ كثيرةٍ بالاستفادةِ من تجاربه السابقةِ. ومن هُنا نرى العدوَّ في هذه الأيّامِ يضعُ شبابَنا تحتَ نيرانِ مؤامراتِه مستعينًا بأدواتٍ جديدةٍ. ويركّزُ العدوّ في هذه الأيّام نشاطاتِه في ميدانَين أساسيَين:

الميدانُ الأوّل هو الميدانُ الفكريّ والنظريّ، وفيهِ يسعى العدوّ للتأثيرِ على أفكارِ الناس واعتقاداتهم واستهدافِ أفكارِ الشبابِ.

والميدانُ الثاني هو الميدانُ العمليّ، والذي يسعى فيه العدوّ لتهيئةِ أرضيّةٍ تُساعدُ على سقوطِ شبابِنا في مستنقعِ المفاسدِ الأخلاقيّة.

إن هذينِ النوعين من نشاطاتِ العدوِ يعملانِ معًا، وبينهما تأثّرٌ وتأثيرٌ متبادَل، فمن جهةٍ كلّما ازداد الفساد الأخلاقيّ فإنّ أرضيّةَ ضعفِ الإيمان تصبحُ خصبةً أكثرَ. وفي الواقعِ يؤدّي ارتكابُ الأعمالِ السيّئة وفعلُ الذنوبِ في النهايةِ إلى حدوثِ الشكّ في الدين والتردّد فيه، وإنكارِه في

نهاية المطاف. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[1].

ومن جهة أخر يشكّلُ ضعفُ العقيدةِ أرضيّةً للتجرّؤ على ارتكاب المعاصي والمفاسدِ.

٥. إدارة مواجهة العدوّ والتخطيط لها

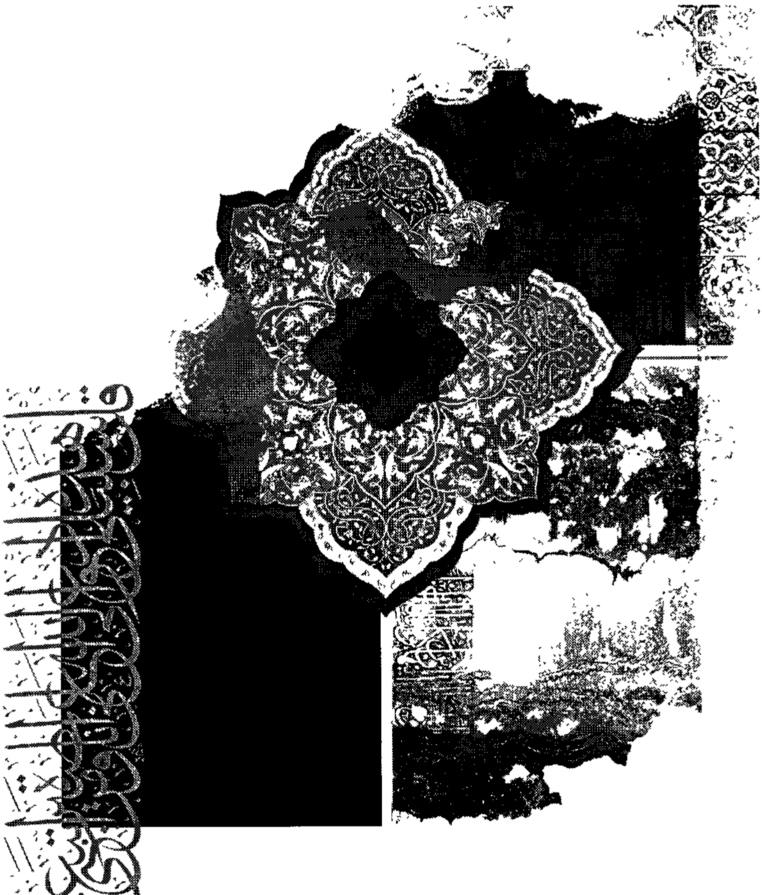
اتّضحَ حتّى الآن أنّه ينبغي سلوكُ أربعةِ مراحلَ معرفيّة قبلَ خوضِ أيّ مواجهةٍ مع العدوّ وهي: معرفةُ العدو، معرفة عناصره الداخليّة، معرفة دوافعه ومعرفة أساليبه وأدواته. وبعد اكتسابِ هذه الأنواع الأربعة من المعارف، لا بدَّ من إدارةِ عمليّة الدفاع والتخطيطِ لأساليبِ مواجهةِ العدوّ. وإنّ مسألةَ الدفاعِ في المجتمعِ الإسلاميّ ليست بمعزلٍ تامّ عن مسألةِ الثقافة، بل إنّ هاتَين المسألتَين متشابكتانِ ومرتبطتانِ معًا. وإنّ على المتصدّينَ لوظيفةِ وضعِ سياساتِ المجتمعِ الإسلاميّ الكليّةِ أن يكتسبوا معرفةً جيّدةً بثقافة مجتمعهم وبالعدوّ أيضًا. وعليهم أيضًا أن يسعوا للارتقاء بمعرفة الشعبِ بعدوّه وأعوانِه في الداخلِ ودوافعه والأساليب التي يعتمدُها وطرقِ مواجهته. وينبغي طرحُ هذه المسائلِ بين مُختلفِ أوساطِ المجتمعِ عبر وسائلِ الإعلامِ، وطرحُها بمستوًى أعلى في الجامعاتِ والأوساطِ العلميّة، كي نقتدرَ على الدفاع عن أنفسنا في جميعِ المراحلِ.

وقد أثبتَ الإمامُ الراحل قدس سره أنّ أفضلَ المسائل السياسيّةِ وأهّمها يمكنُ بيانُها للنّاسِ بأبسطِ بيانٍ، ويمكنُ أيضًا ردُّ كيدِ العدوّ إلى نحرِه وفضحِ مخطّطاته، من دون الاستفادةِ من المصطلحاتِ العلميّة المعقدّةِ

---

(١) سورة الروم، الآية ١٠.

أو المفرداتِ الغريبةِ. فمن خِلالِ خطاباتِه قام قدس سره بتربيةِ الشعبِ بطريقةٍ جعلتهم يعرفون عدوّهم، ويكتشفونَ مؤامراتِه من لحنِ كلامِه وتصرّفاتِه، ويتعرّفونَ على أعوانِه وعملائه في الداخلِ بواسطةِ هذه القرائن والعلامات. ولكن للأسفِ لم ينتشر هذا الأسلوبُ كما ينبغي بعد ارتحالِ الإمام قدس سره ولم يصِل إلى العمقِ اللازم له. وبالطبعِ قد لا يقدرُ بعضُ مسؤولي الدولةِ على توضيحِ بعضِ المسائلِ للشعبِ مراعاةً لبعضِ المصالحِ، إلّا أنّه ينبغي السماح لمن يقدرُ على فضحِ مؤامراتِ العدوّ أن يفعلَ ذلك، بل وينبغي تشجيعه على ذلكَ أيضًا.



الفصل الرابع: موانع اكتساب البصيرة وارتقائها

بما أنّ طريق اكتساب البصيرة وارتقائها دائمًا ما يكون محفوفًا بالموانع والتهديدات، فمن اللازم أن يبحث مجموعة من المتخصصين في هذه المخاطر التي تواجه النظام الإسلامي وخاصّة الأجيال القادمة، لئلّا نسقط في مصائد وفِخاخ الأعداء بسبب ضعف البصيرة. ونشير ههنا إلى بعض الموانع التي تقف في طريق اكتساب البصيرة وتمنع من ارتقائها.

أ. اختلاط الحقّ بالباطل

من الأمور التي تمتاز بها الفتن اختلاط الحق بالباطل، فلا تجد فتنةً يتواجه فيها فريقان ويكون أحدُهما متمحّضًا بالحق والآخر متمحّضًا بالباطل، بل دائمًا ما يلبس أهل الحقّ بعضًا من لبوس الباطل، ويضفي أهل الباطل على كلامهم لبوسًا من الحقّ. وقد جاء في هذا الصدد كلامٌ لأمير المؤمنين عليه السلام: «فَلَوْ أَنَّ اَلْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ اَلْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى اَلْمُرْتَادِينَ وَلَوْ أَنَّ اَلْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ اَلْبَاطِلِ اِنْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ اَلْمُعَانِدِينَ وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ فَهُنَالِكَ

يَسْتَوْلِي ٱلشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَيَنْجُو ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْحُسْنَى»[١].

ومن هنا فإنّ انخداع الناس في أوقات الفتن إنّما يقع عند اختلاط الحقّ بالباطل. فأهل الحقّ الذين يقفون في طرفٍ من أطراف المواجهة يدّعون أنّهم يعرفون أهل الباطل حقّ المعرفة، إلّا أنّ أؤلئك المدافعين عن الباطل يعتمدون ويتّكئون على كلامهم المشوب بالحق، فمن بين كلّ كلماتهم، يجد أهل الباطل عدّة موارد موافقة للحق، فيحتَمون بها ويظهرونها للناس. وفي سبيل خداع الناس وتغيير نظرتهم تجاه الحق، دائمًا ما يبحث المعاندون المخالفون للحقّ عن هذا النوع من الاختلاط والالتباس بلباس الحق، فيُخدع الذين ليسوا من أهل البصيرة بسهولة.

ب. تدخّل عوامل الأنانيّة والنفعيّة والأحكام القبليّة

إنّ للمسائل السياسيّة والاجتماعيّة تعقيداتها الخاصّة، فغالبًا ما يحكّم الإنسان لا شعوريًا، بل وشعوريًا في بعض الأحيان، منافعه الشخصيّة، فيعطي الحقّ للذي يؤمّن له هذه المنافع. وتُعتبر مسألة التأثير الكبير لميول الإنسان على أحكامه من المسائل المعقّدة في علم النفس. وإنّ كثيرًا من الناس عندما يواجهون مسألةً معيّنة يطلقون في أعماق أذهانهم حكمًا مسبقًا عليها، ومن ثمّ يسعى الشخص للوصول إلى النتيجة التي يرجوها. ومع أنّك تراه في الظاهر مشتغلًا في التحقيق والبحث كي يحكم بناءً على الشواهد والقرائن التي يحصل عليها، إلّا أنّ قلبه في الواقع يكون قد حكم مسبقًا على النتيجة التي ينبغي الوصول إليها.

---

(١) السريف الرصى، **نهج البلاغة**، الحطبة ٥٠.

وبإمكاننا العثور على نماذج كثيرة لأفراد حـدّدوا تكليفهم تجاه مسألة معيّنة منذ البداية تحت تأثير أهوائهم أو ضغوطات أقاربهم، أو زوجاتهم، أو أولادهم، أو رفاقهم في الحزب، ومن بعدها لجؤوا إلى البحث والتحقيق الظاهريَين، وغرضهم من ذلك توجيه ما أملته عليهم أهواؤهم. وقد يطرح هذا الأمر حتّى في المسائل الدينية والمعنوية، إذ إنّ الإنسان إذا ما هوى شيئًا، فإنّه يسعى لإيجاد توجيه له، وقد يصل به الأمر أحيانًا إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال. كذلك في المسائل السياسية والاجتماعية نجد أشخاصًا يختارون منذ البداية طريقًا معيّنًا ينسجم مع أهوائهم، ثمّ يتّجهون إلى الاستدلال وحشد القرائن المؤيّدة لهذا الطريق. وإنّ البعض يذهب باتجاه التحليل السياسي بهذه النظرة، فيكون جلّ همّهم أن يثبتوا بكافّة السبل المتاحة أنّ رأيهم هو الصواب. وإنّ هؤلاء الأشخاص في الواقع، منذ البداية لم يكونوا بصدد إثبات صحّة توجّهاتهم علميًا، بل كانوا بصدد رسم صورةٍ لتوجّهاتهم يقبلها السذّج من الناس.

في مثل هذه الموارد، يكون الأشخاص المتصدّون للتحليل السياسي على علم ودراية بالحقيقة، إلّا أنّهم، وبغرض تأمين منافعهم الشخصيّة، يتصرّفون على خلاف الحقيقة، ولا يألون جهدًا في إبعاد أذهان الناس عن الحقيقة ما أمكن، من خلال جمع القرائن والاستدلالات. وهذا الطريق هو تحديدًا طريق النفاق. وعندما يختار الإنسان طريق الباطل عمدًا ويسير فيه ويغلق عينيه عن الحقيقة، فإنّ الله سبحانه وتعالى سيحرمه نعمة البصر: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[1]. بالطبع، إنّ باب الإصلاح والعودة مفتوحٌ أمام الشخص الذي يغمض عينه مرّة أو مرّتين عن الحقيقة ثمّ

(١) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

يتوب، أمّا ذلك الشخص الذي جعل من هذا الأمر نهجه وأسلوبه حتّى اعتاد عليه وأنس به فتبدّل إلى ملكة راسخة عنده، فإنّ الأمر سيصل به تدريجيًّا إلى أن يصبح بحال يعمد معها على الدوام إلى توجيه المسائل بطريقة تُظهره على حقّ. وفي النهاية يصل هذا الشخص إلى مرحلة لا يعود معها قادرًا على إدراك الحقيقة، وهذا في الواقع هو الإضلال الإلهي: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

في هذه الحالة تُسلب البصيرة من الإنسان. وعليه فإنّه ولو كان لا بدّ علينا في البداية أن نسعى، من خلال إعمال العقل والمشورة، في سبيل تحصيل المعرفة في ما يرتبط بهذه المسائل، إلّا أنّه ينبغي أن لا نكتفي بذلك ونغفل عن أنّ للنفس الإنسانية مكرًا. إنّ قلوبنا إذا ما أرادت شيئًا فإنّنا سنُسَاق لا شعوريًا نحو المسير الذي تمليه علينا قلوبنا. ومن هنا، لا بدّ من تحصيل التقوى لمواجهة هذا الأمر وأن ندعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظنا من شرّ هوى النفس ومكائد شياطين الإنس والجن، كي نحصل على قدرة إدراك المسائل حقيقةً. فإن فعل الإنسان ذلك، غدا من أهل البصيرة.

فتحصّل مما سبق أنّ ثمة شروطًا ثلاثةً أساسيةً لا بدّ من تحقّقها لاكتساب البصيرة:

الشرط الأوّل هو الاستعداد الفطري الإلهي الذي يمتلكه أغلب البشر، وقليلون هم الذين لا يعرفون شيئًا ويسهل خداعهم في شتّى الأمور ولا يقدرون على تشخيص الحقائق كالسفهاء والمجانين.

---

(١) سورة الحج، الآية ٤٦.

الشرط الثاني هو إيصال هذا الاستعداد إلى مرحلة الفعلية عبر المطالعة والتفكير والبحث والمشورة. وما توصيات القائد دام ظله للجامعيّين بطرح المباحث الاجتماعية والسياسية والأبحاث الحرّة، إلّا من أجل إيصال هذه القوّة والاستعداد إلى مرحلة الفعلية، حتّى لا يقع الفرد بسهولة تحت تأثير أيّ مدرسة فكرية، إذ إنّ التفكير الحرّ يمنح الإنسان المقدرة على تحليل المسائل.

الشرط الثالث - وهو أهمّ الشروط - هو التقوى في التفكير، ومن جملة شرائطه أن لا يقع الإنسان تحت تأثير أصدقائه أو أكثريّة الناس إذا وصل إلى حقيقة لا يرتضونها. ومن هنا يقول السيد القائد دام ظله: «إنّنا لا نحتاج إلى الشجاعة في العمل فقط، بل نحتاج إليها أيضًا في التفكير. نحتاج إلى الشجاعة في الفهم الفقهي؛ وما لم نتحلَّ بالشجاعة فإنّ الخلل سيقع حتّى في الفهم». إنّ الفاقدين للتقوى في التفكير ما أن يرَوا أنّ لكلّ محيطٍ مقتضياته الخاصّة، حتّى تراهم يتلوّنون مع كلّ محيط بحسبه حتى يجلبوا الناس إلى صفّهم. أمّا لازم البصيرة فأن يعمد الإنسان إلى التفكير الصحيح في كلّ أمر، سواءٌ أَقَبِلَ الآخرون، وحتّى المقرّبون، هذا التفكير أم لم يقبلوه. وقد برز في أحداث الثورة الإسلامية المباركة أشخاصٌ، سواء في ميدان الفكر أو السياسة، كانوا بحقّ من أهل التقوى فوقفوا بحزم في وجه مخالفيهم من أصدقائهم والمقرّبين منهم. ونذكر على وجه الخصوص آية الله الشهيد المطهري رضوان الله عليه، الذي كان كثيرًا ما يُواجَهُ ويُخالف بشدّة من قبل أصدقائه المقرّبين وزملائه، إلّا أنّه كان يقف في وجههم، حتّى أنّه كان يتعرّض للإهانة والسخرية والإساءة واضطر للانزواء، إلّا أنّه لم يتراجع يومًا عن مبدئه ونهجه حتى وصل إلى الشهادة. فكانت الشهادة ثوابَ ثباته على بصيرته. فقد كان الشهيد

المطهري ثابتًا كلّ الثبات على ما علّمه إيّاه الله، ولهذا السبب زاد الله في بصيرته: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾[1].

وفي المحصّلة، فإنّه ينبغي علينا في مرحلة تحصيل المعرفة واكتساب الرؤية أن نحذر من الوقوع في أسر العواطف، والانفعالات، والغرائز الحيوانية، والوساوس النفسانية. وبعد الفراغ ممّا يرتبط بالبُعد المعرفي والذهني، نصل إلى البُعد المرتبط بالرغبات والميول والتعلّقات. ففي الكثير من الأحيان تؤثّر رغبات الإنسان على تشخيصه للوقائع، فيحصل ارتباط مباشر بين رغبات الإنسان وأحكامه. فقد توجب هذه الرغبات والتعلقات القلبية حكمًا خاصًا على موضوع معيّن، الأمر الذي يبعث على حرمان الإنسان من بصيرته. وإنّ الحقيقة القائلة بأنّ من شأن أحاسيس الإنسان وعواطفه، ورغباته وانفعالاته أن تُعمي عين عقله، غير قابلة للإنكار. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في العديد من الآيات، منها: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[2]، ومنها أيضا: ﴿أَفَرَأَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

وبعبارة أخرى، في سبيل اكتساب البصيرة لا بدّ أوّلًا من تحصيل القدرة على تشخيص وتمييز الكلام الصحيح من الخاطئ، وتمييز الجيّد من السيئ، والصديق من العدو، كي لا تشتبه الأمور علينا؛ فلا نخلط بين كلامٍ وآخر بسب المغالطات وتشابه الألفاظ، ولا نخلط بين شخص وآخر

(١) سورة محمد، الآية ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ٧.

(٣) سورة الجاثية، الآيه ٢٣.

بسبب التشابه والإبهام. وبعد اكتساب المعرفة الصحيحة ينبغي أن لا نقع أسرى لعواطفنا وأحاسيسنا، وأن نتحرّر من كلّ العوامل التي من شأنها التأثير على أحكامنا وحرفها عن مسارها الصحيح، فإن تحرَّرَ العقلُ من أسر الهوى والعادات، والحبّ والبغض النفساني والشيطاني، فإنّه يتأتّى له أن يحكم بالحق، وعندها يمكن للبصيرة أن تتحقّق في المرء.

وعليه، لا بدّ من أجل تحصيل البصيرة، بالإضافة إلى التفكير، من إصلاح الدوافع والرغبات، فيجب علينا أن نعالج القضايا بدوافع سليمة، وأن يكون مقصدنا بحقّ هو البحث عن الحقيقة والعمل وفق ما تقتضيه، لا أنّ نختار النتائج التي تهواها قلوبنا، أو تلك التي تحقّق لنا المنفعة، أو تكون أكثر انسجامًا مع غريزة طلب الراحة والعافية. إنّ الدوافع النفسانية من شأنها أن تصل في تأثيرها على أحكام الإنسان إلى درجة أن يشتبه الأمر على نفس هذا الإنسان. ومن الممكن حتّى أن يمتلك الإنسان ذكاءً عاليًا، إلّا أنّ الأمر قد يصل إلى أن يخدع نفسه. إنّ الإنسان مخلوقٌ مدهش، يريد أحيانًا أن يخدع الله أيضًا، إلا أنّه في الحقيقة يخدع نفسه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾[١].

قد يخدع الإنسان نفسه أحيانًا فيعتقد مثلًا أنّه إذا لم يُعمَل برأيه، فإنّ النظام الإسلامي سينهار ويـزول. يرى مثل هذا الشخص الإسلامَ متجسّدًا فيه، ويعتقد أن مخالفة قوله تساوي زوال الإسـلام والثورة الإسلاميّة، فهو فقط - في اعتقاده - من يمتلك الفهم الصحيح للإسلام، والفهم الصحيح للقضية السياسية، ولا أحد غيره يدرك مصلحة النظام الإسلامي. في مثل هذه الموارد، تغدو الأنانيّة والغرور والتكبّر حُجُبًا أمام

(١) سورة البقرة، الآية ٩.

عين الإنسان تمنعه من الإبصار، فيتوهّم أنّه لا نظير له، وأنّ صحّة إدراكه لا يُقاس بها إدراكُ أيّ شخص آخر.

لذلك فإنّ تنمية القوى الفكرية لا يكفي في اكتساب البصيرة، بل لا بدّ من إصلاح الدوافع من خلال تهذيب النفس، لأنّ الأحكام قد تقع أحيانًا تحت تأثير المنافع الشخصية، وفي هذه الحالات، يأمل الفرد في أن يصل الشخص الذي يؤمّن له منافعه إلى المناصب السياسية بواسطة أحكامه وتحليلاته. ففي انتخابات رئاسة الجمهورية وانتخابات مجلس الشورى الإسلامية والمجالس البلديّة وفي سائر الانتخابات يوجد أفرادٌ لا يرَون إلّا منافعهم الشخصيّة، فيدافعون عن المرشح الذي يؤمّن لهم منافعهم الشخصية أو الحزبيّة، ويسوقون تحليلاتهم بهذا الاتّجاه، غير آبهين بما إذا كان هذا المرشّح يعمل لمصلحة عموم النّاس أم لا.

ومن هنا، كان هوى النفس عدوّ البصيرة، وكان بدءُ الفتن اتّباع هذا الهوى: «إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ اَلْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ»[1]. فلا تقع الفتن إذا وضع الناس هوى النفس جانبًا، وسعوا من أجل معرفة ما يريده الله منهم وما يحقّق مصلحة الناس والنظام الإسلامي، وإن وقعت فإنّ إصلاحها سيكون سريعًا. ولكن عندما يكون هوى النفس هو الحاكم، وكلّ شخص يركض وراء منافعه الشخصية، فإنّ الفتنة إن وقعت سيطول وجودها. فإذا أردنا أن نكونَ من أتباع رسول الله ﷺ الذين قال فيهم: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾[2]، وإذا أردنا أن نعمل بتوصيات سماحة القائد دام ظله، وأن نعرف الطريق الصحيح ونسير فيه في كلّ

(١) السريف الرضى، **نهج البلاغة**، الخطبة ٥٠.

(٢) سوره يوسف، الآية ١٠٨.

القضايا، وخاصّة تلك المتعلّقة بمصير مجتمعنا الإسلامي، لا بدّ أن نضع نصب أعيننا أمرَين أساسيَين:

الأمر الأوّل هو تحصيل الفكر الصحيح والعميق والابتعاد عن التفكير السطحي والاكتفاء بالشواهد الظاهرية.

الأمر الثاني هو إصلاح النيّة واتّباع الحق وإن كان فيه خسارة وضرر. وعلينا أن نعلم أنّ الحقّ في النهاية لن يضرّ أحدًا، وإن عانى الإنسان من بعض الخسائر أثناء وقوفه في وجه أهل الباطل، إلّا أنّها خسائر قصيرةٌ مدّتها وسرعان ما تزول، وفي النهاية سيحقق الحقُ النفعَ للجميع ولمدة طويلة.

ج. التأثّر بأقوال المخالفين وأفعالهم

لا شكّ ولا ريب في أنّ أفكار أبناء المجتمع من العوامل المؤثّرة في تحديد أفعال الإنسان، وأنّ آراء وأقوال الآخرين تترك أثرًا كبيرًا على سلوكياته. فعلى سبيل المثال عندما يُقدِم الإنسان على فعلٍ ما، ويلقى مديحًا وتشجيعًا من الناس، فإنّ من شأن مديحهم وتشجيعهم هذا أن يقوّي في الإنسان الدافع نحو القيام بهذا الفعل. وفي المقابل قد يشخّص الإنسانُ من خلال التفكير الدقيق والجهد الحثيث أنّ فعلًا ما حسنٌ وينبغي فعله، إلّا أنّه يتراجع عن القيام به ولا يبدي أيّ رغبة في فعله، إذا لم يحظَ بإعجاب الناس.

فما هي وظيفتنا في مثل هذه الموارد؟ وإلى أيّ مدى يتأتّى للإنسان أن يقاوم الآراء والأفكار العامّة ويصمد في وجهها؟ وهل ينبغي علينا أن نفعل ما نشخّص أنّه وظيفتنا، أو ما تمليه علينا أذواق الآخرين؟ فقد يشخّص الإنسان مثلًا من خلال التفكير الدقيق أنّ الفعل الفلاني وظيفةٌ

ينبغي القيام بها، إلا أنّ قيامه بها سيعرّضه لملامة الزوجة، والأب، والأم، والأخ، والأخت، والآخرين، ففي ظرف كهذا، إلى أيّ حدّ يمكن للشخص أن يقاوم ويواجه أفكار الآخرين ويصرّ على أداء وظيفته؟؟

يقول القرآن الكريم في حديثه عن مثل هذه الظروف: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[١]. وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام يقول في وصيّته للإمام الحسن عليه السلام: «وجَاهِدْ فِي اللَّه حَقَّ جِهَادِه، ولَا تَأْخُذْكَ فِي اللّه لَوْمَةُ لَائِمٍ»[٢].

إنّ تأثّر الإنسان بأقوال الآخرين وأفعالهم من الآفات الكبيرة التي تطال المجتمع والفرد على حدّ سواء، وأثرها السيئ يكمن في أنّها تجرّ المجتمع والفرد نحو الانحراف. فأحيانًا قد يتّخذ الإنسان قرارًا ويختار مسارًا بعد التفكير الكثير، ويشخّص مستعينًا بالأدلّة المحكمة والمتقنة وجوب فعلٍ ما ومطلوبيّتَه، وما إن يحين وقت التنفيذ وينزل إلى ميدان العمل، ويشاهد ردود أفعال الناس وقولهم: «لا ينبغي عليك القيام بهذا العمل"، حتّى تراه يقع أسيرًا لملامتهم، فيضعف عن القيام بوظيفته اليقينية والخطيرة ويغضّ الطرف ويرفع اليد عن وظيفة كان قد قطع بوجوبها عليه.

وإنّ عدم التأثّر بآراء الآخرين من الأهميّة بمكان حتّى إنّ بعض الروايات اعتبرته معيارًا للتشيّع والولاية. فقد جاء في الحديث عن الإمام

(١) سورة المائدة، الآيه ٥.

(٢) السريف الرصى، **نهج البلاغة**. الرسالة ٣١.

الباقر عليه السلام مخاطبًا أحد أصحاب سرّه، وهو جابر بن يزيد الجعفي: «وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَا تَكُونُ لَنَا وَلِيًّا حَتَّى لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مِصْرِكَ وَقَالُوا إِنَّكَ رَجُلُ سَوْءٍ لَمْ يَحْزُنْكَ ذَلِكَ، وَلَوْ قَالُوا إِنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ لَمْ يَسُرَّكَ ذَلِكَ، وَلَكِنِ اعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ».

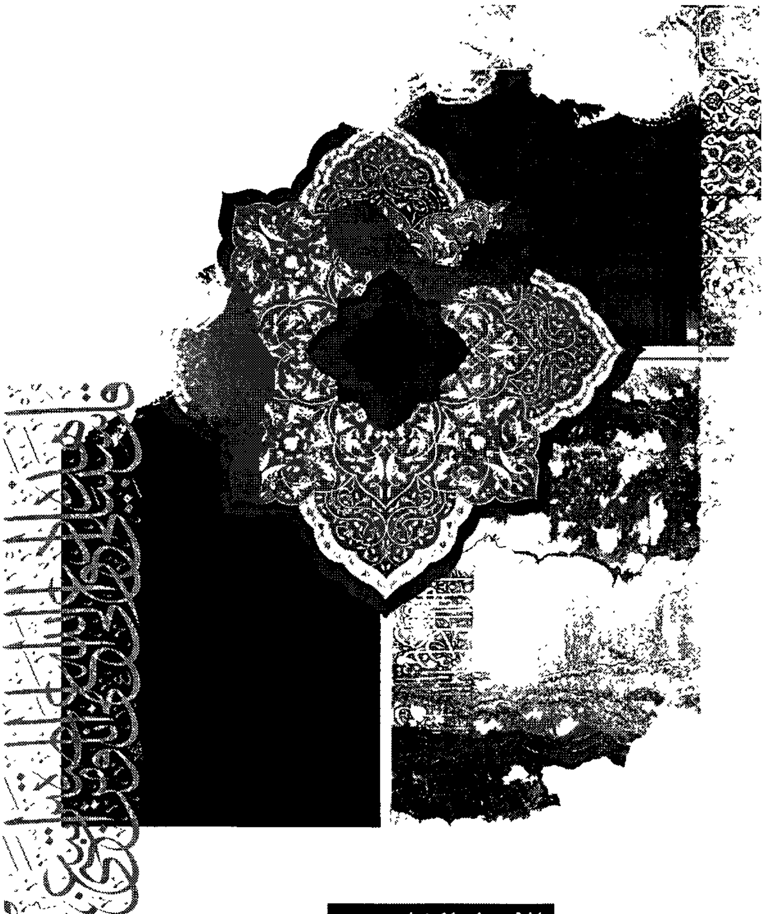
فقد كان الأئمّة عليهم السلام بصدد تربية أفرادٍ على استعداد للتضحية بأموالهم، وأنفسهم، وجاههم، وماء وجهم، وأعزّائهم، في سبيل تأدية وظيفتهم الإلهيّة، دون أن يتزلزلوا أو يضعفوا. وقد حفظ أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام روحيّة الإيثار هذه في جهادهم الثقافي أيضًا، فقضوا سنين عمرهم في تبيين وترويج قيم الإسلام وعقائده. ولو تعرّض الشخص منهم في هذا الطريق لكافّة أشكال اللوم، فإنّه لا يتزلزل ولا يتراجع. فإنّ الإنسان الذي يقدم على تحصيل العلوم الدينية وتبليغ المعارف الإلهية أو أيّ وظيفة أخرى بدافعٍ إلهي، فإنّ ملامة الآخرين لا يمكن أن تؤثّر فيه ولا في عقيدته السليمة، ولا يمكن أن تضعفه أو تزلزله، حتى لو قيل له: «لو كنت اخترت لنفسك عملًا آخر لكان راتبك كذا وكذا؛ ومع هذه الديون الكبيرة والبيت الطيني والوضع المزري، لا يمكن لك أن تدرس جيّدًا وأن تروّج للدين».

بناءً عليه، ينبغي على الإنسان أن ينظر في نفسه، فإن وجد أنّ أفعاله ليست على أساس الوظيفة الإلهية، وأنّها ليست محلّ رضا الله سبحانه وتعالى، فإنّ عليه أن يعيد النظر فيها، وأن يتدارك ما فاته وأن لا يقصّر في أداء وظيفته بعد تشخيصها قطعًا. فإن الذي يتوانى في أداء وظيفته بسبب تأثره بكلام الآخرين، فلا بد من التشكيك في تشيّعه، إذ ينبغي أن يكون الملاك في أعمالنا هو القرآن الكريم، كلام الله وإرادته

سبحانه وتعالى، فقد جاء في تكملة حديث الإمام الباقر عليه السلام الوارد في كتاب **تحف العقول**:

«واعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كُنْتَ سَالِكًا سَبِيلَهُ زَاهِدًا فِي تَزْهِيدِهِ رَاغِبًا فِي تَرْغِيبِهِ خَائِفًا مِنْ تَخْوِيفِهِ فَاثْبُتْ وَأَبْشِرْ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا قِيلَ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُبَايِنًا لِلْقُرْآنِ فَمَا ذَا الَّذِي يَغُرُّكَ مِنْ نَفْسِكَ».

ومن الواضح أنّ الشخص منّا إذا ما أراد أن يُغيّر من نفسه وأن يصبح النموذج المطلوب والمراد عند أهل البيت عليهم السلام، لا بد من أن يسلك طريق تهذيب النفس وبنائها، كي لا يقع تحت تأثير كلام الآخرين، وأن يؤدّي وظيفته على أكمل وجه ما إن يشخّصها. وعليه، لا بد للمرء قبل أي شيء أن يكتسب بصيرةً في دينه، كي يقتدر على تشخيص وتحديد أولويّاته عبر العلم والمعرفة، وأن يعمل على طبق علمه ويؤدي وظيفته، وأن لا يثنيه عن سلوك طريق الله سبحانه وتعالى وتأدية وظيفته أي كلام وتجريح لفظي ولو كان كلامًا مؤثرًا.



الفصل الخامس:

البصيرة السياسية عند الإمام (قده سره) والقائد (دام ظله)

إنّ التحلّي بالبصيرة في المسائل الاجتماعية، وخاصّة في الفتن، جوهرةٌ ثمينة ذات مراتب ومنازل مختلفة. فليس الأمر أنّ مؤشّر البصيرة إمّا أن يبلغ ذروته وإما أن يبلغ الصفر، أو أنّ الإنسان إمّا أن يتحلّى بتمام البصيرة وذروتها وإمّا أن يفتقر إلى البصيرة تمام الافتقار. ثم إنّ على كلّ إنسان، في أي مرتبة أو منزلة من البصيرة كان، أن يسعى في سبيل الارتقاء ببصيرته والمضيّ قدمًا على طريق طيّ منازل البصيرة. وإنّ من الأمور التي تستوجب شكرَ الله تعالى أنّ الشخص المتصدي على رأس نظام الجمهورية الإسلامية، قد أثبتت التجربة أنّ بصيرته تفوق بصيرة كلّ من يدّعي البصيرة لنفسه، وأنّه يتمتّع بالقوى الإنسانية والتجارب الاجتماعيّة، بل والعنايات الإلهيّة والتأييدات الغيبيّة التي شملته ببركة عناية صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف. وهذا الأمر يصدق بحق على الإمام الخميني قدس سره والسيد القائد دام ظله.

ففي زمن الإمام الخميني قدس سره، وخاصّة في فترة الحرب المفروضة، كانت تطرأ على الساحة السياسية أو العسكرية أحـداثٌ يتّخذ فيها الإمام قدس سره موقفًا معيّنًا لا يوافقه عليه أحدٌ من مساعديه، غير أنّ الإمام قدس سره كان يصرّ على موقفه لأنّه كان على بصيرةٍ في دينه. ولا يطول

الأمر حتّى يدرك الآخرون أنّ الإمام قدس سره كان على حقّ. وأيضًا في أيّامنا هذه، نرى أنّ الشخص الذي خَلَفَ الإمام قدس سره في القيادة كأنّه الإمام نفسه، وكأنّ روح الإمام تسكن جسده. وإنّ وجود هذه الميزة الإيجابية في نظام الجمهورية الإسلامية هو ما يفسّر المخالفة والمواجهة الشديدة التي يمارسها أعداء هذا النظام؛ وإلّا فإنّ التجربة تشير إلى أنّه من السهل على أعداء القادة الآخرين خداعهم وتسييرهم وفق ما تقتضيه سياساتهم وبرامجهم، وإذا ما ألقينا نظرة إلى الدول الأخرى، فإنّنا نجد نماذج كثيرة من هذا القبيل، فأنور السادات على سبيل المثال، مع أنّه كان في البداية من مناصري جمال عبد الناصر ومن مخالفي العدو الصهيوني، إلّا أنّهم استطاعوا في النهاية خداعه وشراءه بثمنٍ بخس، حتى انتهى به الأمر إلى مناصرة الكيان الصهيوني الغاصب.

وإنّ من أهم ما يميّز شخصيّة القائد دام ظله استحالة خداعه والإيقاع به بأيّ شكل من الأشكال، وعدم خوفه من أيّ كان، واستعداده لأداء وظيفته ولو كلّفه ذلك روحه. وإنّ المشكلة الأساسية التي تقف عائقًا أمام أعداء النظام الإسلامي هي النصرة الحقيقيّة التي يحملها الشعب للإسلام، واتّباعُه مبادئ الإسلام الصادرة عن لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام والإمام الخميني قدس سره والسيد القائد دام ظله، ومن جهة أخرى علمُ الأعداء أنّ القائد دام ظله لا يسقط في مكائد المالِ والسلطة ولا يُخدعُ بها، بخلاف غيره من قادة الأنظمة التي استطاع الأعداء النفوذَ إليها من خلال قنطرة المال والسلطة، فالجمهورية الإسلاميّة سدّت عليهم طريق النفوذ هذا، وأحالته غبارًا في أعينهم يعميها ويحرمها من النظر. هذا وإنّ العدوّ قد اعترف مرارًا بأنه لا طريق للسيطرة على هذا النظام ما دام هذا القائد على رأسه، ولذلك تراهم يسعون بكلّ ما أوتوا من قوّة كي يزيحوا شخص القائد عن طريقهم أو يغتالوا شخصيته. وما الشبهات المختلفة التي

يطرحونها حول ولاية الفقيه إلّا من أجل تضعيف هذا النظام وتضعيف قيادته، وغايتهم من ذلك أن يصبح منصب القيادة منصبًا تشريفيًا لا أكثر. وعليه، فلا يوجد أمام الأعداء أيّ طريقٍ غير قتلِ شخصِ القائد أو شخصيّته، لأنّ طريقَ النفوذ إلى الجمهورية الإسلاميّة منحصرٌ في هذَين الأمرَين. ومع أنّ بإمكانهم خداعَ أيّ شخصٍ آخر، إلا أنّه طالما بقي القائد على رأس الجمهورية الإسلاميّة فلا يمكن لأحدٍ مواجهة النظام والثورة.

وأمّا من أجل إدراكِ بصيرة الإمام قدس سره العالية، فبالإمكان تسليط الضوء على قبساتٍ من حياته المباركة. عندما عاد الإمام قدس سره من منفاه في فرنسا إلى إيران، وتوفرت أرضيّة الثورة، أعلن النظام البهلويّ الحكمَ العسكريّ لئلّا يخرج الناس إلى الساحات، وضجّت وسائل الإعلام بطرح موضوع الحكم العسكري بغرضِ خلق الذعر والخوف في صفوف الناس. الأمر الذي أدّى إلى وقوع قوى الثورة في حيرة شديدة، لأنّ التزام الناس بقرار الحكومة والقبول به يعني تعرّض الثورة للسقوط الأول، إذ إنّ قبول الحكم العسكري والانصياع له يعني عدم تجرّؤ أحدٍ على أن يحرّك ساكنًا فتسقط الثورة. وفي المقابل فإنّ رفض الحكم العسكري والوقوف في وجهه وبقاء الناس في الساحات يعني سفك الكثير من الدماء. وفي النهاية، صمّم الكثير من قادة الثورة على الطلبِ من الناس التزام منازلهم وعدم الخروج منها، إلّا أنّ الإمام قدس سره اختلى بنفسه ساعةً ولم يستقبل أحدًا في غرفته، وبعدها خَرجَ من غرفته معلنًا قرَاره النهائي: «قولوا للناس أن يملؤوا الساحات». غير أنّ بعضَ المقرّبين من أصحاب النيّة الحسنة لم يرتضوا قرار الإمام هذا، ومن جملتهم آية الله طالقاني الذي اتّصل بالإمام، محذّرا إيّاه من تبعات هذا القرار وعواقبه.

استمع الإمام قدس سره لكلامه، ثم أشار إليه قائلا: «ماذا لو كان هذا القرار من صاحب الزمان عجل الله فرجه؟؟». هنا سكت آية الله الطالقاني.

ونظيرُ هذه المواقف، مواقف كثيرة وبأشكال مختلفة حدثت مع سماحة القائد دام ظله. وفي المواقف التي وقع فيها المقرّبون من النظام في حيرةٍ من أمرهم، كان تدبيره يرفع التهديد عن النظام الإسلامي. وكمثال على ذلك، إدارته للموقِف واتّخاذه للقرارات في أحداث ١٨ تير[١]، حيث ارتفع الخطر عن الجمهورية بواحدٍ من قراراته الحكيمة، والذي ما كان ليخطر في ذهن إنسان. وقد تجلى هذا الأمر بوضوح أيضًا في أحداث فتنة ١٣٨٨ هـ ش[٢].

كل هذه النماذج هي علامات وإشـارات على الدرجة العالية من البصيرة التي يتحلّى بها قادة الجمهورية الإسلامية.

---

(١) فتنه جامعة طهران التي تخللها أعمال شغب وتخريب في ١٨ تير من العام ١٣٧٨ هـ س، الموافق للتاسع من تموز من العام ١٩٩٩ م. [المترجم]

(٢) أحداث فتنة الانتخابات الرئاسيه الإيرانية عام ١٣٨٨ هـ س الموافق للعام ٢٠٠٩ م. [المترجم]



الفصل السادس: مِلاك تحديد البصيرة

من الأبحاث التي تُطرح بجديّة فيما يرتبط بقضيّة البصيرة أنّنا في كلّ مواجهة بين طرفَين نرى كلَّ طرفٍ يدّعي أنّه من أهل البصيرة. إذ إنّ الجميع مذعنون بضرورة التحلّي بالبصيرة، ولا يتأتّى لعاقل أن ينكر ضرورَتها أو يصفها بسوء. ولكن يقع الكلام كلُّ الكلام في أنّ كلّ شخصٍ يدّعي البصيرة لنفسه، وأنّنا نرى البعض يتبجّح بمقولة: «إنّنا أكثرَ منكم ذكاءً، ولقد درسنا أكثر منكم، وفي جعبتنا تجربةٌ أكبرُ من تجربتكم، وإنّ لدينا من العلاقات والارتباطات بالمراكز العالميّة في الميادين العلمية والثقافية والسياسة ما ليس لديكم.» وغرضُهم من كلّ هذه الادّعاءات الإشارةُ إلى عمق بصيرتهم وأفضليّتهم على كلّ من عداهم في هذه الميادين.

وعليه، فإنّنا نواجه مشكلةً مفادُها أنّ أؤلئك الذين يواجهوننا ويخالفوننا ويتبعون الحركات والاتّجاهات الباطلة يدّعون أيضًا أنّهم أهل بصيرة. ومن المحتمل أيضًا أنّ في فتنة العام ١٣٨٨ هـ ش كان هناك فئةٌ تتّهمنا بعدم التحلّي بالبصيرة والوعي السياسي، وتنسب إلينا الضعف في إدراك المسائل والأحداث الجارية حول العالم، وأنّنا لا نفقه شيئًا فيها. وكان لسانُ حال هذه الفئة أنّ مقولة القائد دام ظله «يجب أن يكون لديكم بصيرة» لا غبار عليها، إلّا أنّ المهمّ أن نعرف «من هم أهل هذه

البصيرة؟»، فكانوا ينسبون البصيرة إليهم، وحجّتهم في ذلك أنّ معلوماتهم أكثر وتجربتهم أكبر وأنّ لهم سابقةً وباعًا طويلَين في هذه المسائل، فيُلقون على الطرف المقابل سيلًا من الاتّهامات من قبيل: «إنّكم وصلتم للتوّ إلى الساحة السياسيّة، وتفتقرون إلى التجربة ولذلك لستم من أهل البصيرة، بل عليكم أن تشتغلوا في المسائل السياسية والاجتماعيّة لعشرات السنوات كي تصبحوا من أهل البصيرة».

وفي المحصّلة، إنّه لا يشكّ أحدٌ في ضرورة البصيرة، بل إنّ الكلام في تحديد «أين هي البصيرة؟ ومن هم أهلها؟»، ومن هنا كان لِزامًا علينا أن نبحث ونطالعَ حول حقيقة البصيرة وكيفيّة تحقُّقها وطُرق اكتسابها ومعرفة موانعها، لكي نتمكّن إذا ما اتّهمنا أحدٌ بأننا لسنا من أهل البصيرة من أن نثبت له أنّ مخطئ، أو على الأقل كي يرضى وجداننا ويطمئنّ بأنّ البصيرة التي أرادنا الله تعالى أن نتحلّى بها وأكّد عليها المعصومون عليهم السلام، والتي تشكّل موضع اهتمامِ وعنايةِ القائد دام ظله، هي بعينها ما نحن بصدد اكتسابه.

وإنّ أوّل سؤال يُطرح في هذا الصدد: «كيف لنا أن نسير على طريق اكتساب البصيرة؟ بل وأساسًا من أيّ مقولةٍ هي البصيرة؟ وكيف يُحصَل عليها؟»، وبغرض الإجابة عن هذه التساؤلات لا بدّ من ذكر مقدّمة قصيرة:

إنّ البصيرة بلا شكّ من مقولة المعرفة. وفي الواقع، تختلف المعرفة المصاحبة للبصيرة عن تلك المفتقرة لها. إنّ للإنسان إدراكاتٍ تنبع من إدراكاته الحسيّة وتصدر أحكامُها على وفقها، وإنّ عموم الناس، من المراهق الذي وصل مرحلة البلوغ للتوّ وبدأ باكتساب إدراكاته الاجتماعية إلى الشيخ والشيخة الكبيرَين من الذّين قطعوا السنين المديدة في هذه الدنيا وخاضوا التجارب الطويلة على مدار عشرات السنين، كلّهم يتمتّعون

بهذا النوع الإدراكـات الحسيّة. فعلى سبيل المثال، لو صادف أن رأينا رجلًا بصحبة امرأة في الشارع، ورأيناهما يتحادثان فإنّنا سنظنُّ أوّلًا أنّهما زوجان في طريقهما إلى السوق من أجل التسوّق. هذا هو حكمنا الأوليّ بعد رؤية هذا الموقف، ولكن لو دقّقنا أكثر وراقبنا تصرّفاتهما وطريقة تخاطبهما، أو لو سمعنا شيئًا من حديثهما مثلًا، فمن الممكن عندها أن نحكمَ باطمئنان أكثر فيما إذا كانا زوجَين أو لا. بل من الممكن، من خلال التدقيق، أن يشخّص أحدٌ ما أنهما في صدد التخطيط لسرقة متجر، وقد يكتشف آخر أنّ بينهما علاقةً غير مشروعة وأنهما بصدد البحث عن مكانٍ خالٍ لممارسة أعمالهم غير المشروعة.

في هذه الموارد، لا يكون الحكم الأوّلـي ناشئًا من البصيرة، بل يكون محضَ حكمٍ سطحيّ، ولكن بعد التدقيق وملاحظة الشواهد والقرائن المعيِّنة والكاشفة، نصل إلى معرفة الغاية والهدف الحقيقي وراء تصرّفاتهما. وحينها لا يكون الحكم على تصرّفات هذَين الشخصَين سطحيًّا، بل يكون ناشئًا عن بصيرة ورؤية، إذ إنّه حصل بعد التفكير الجيّد وملاحظة كلّ جوانب المسألة والبحث في كافّة شرائطها وظروفها وإعمال العقل والتدبير.

ويمكن أن نجدَ نظيرًا لهذه الموارد وأمثلةً عليها في كلّ المسائل الاجتماعية، إذ إنّ الأحكام التي نُصدرها تجاه المسائل الاجتماعية المختلفة تكونُ في بعض الأحيان سطحيّةً ومبتنيةً على الشواهد والقرائن الضعيفة، وخاصّةً عندما تكون هذه المسائل موضوعةً على وفق برنامج وخطّةٍ معقّدة. إذ كلّما طرحت مجموعة ما خطّةً معقّدة وأرادت تنفيذها، فإنّها تعمل على إخفائها وتغطيتها بعدّة أغطيةٍ وتضع لها مجموعةً من الرموز الخاصة، ولذلك يتعذّر اكتشاف أهداف هذه

المجموعة بسهولة من خلال حوارٍ أو حركةٍ واحدة. وكلّما ازددنا تنبّها وتدقيقًا في الشواهد والقرائن وتنظيمها بعضها مع بعض، أمكن لنا أن نصل إلى نتائج أفضل في تحليلنا.

هذا وإنّ الوضعَ في *تحليلِ المسائل الاجتماعية* يصبح *أكثر حساسيّةً*، ذلك لأنّ هذه المسائل لا تُعنى بمنافع فردٍ أو مجموعة أفراد فقط، بل قد تطال هذه المنافع والأضرار ملايين الأفراد، وقد تتخطّى حدودَ البُلدان، وأحيانا تخترق حواجز الزمان الحاضر فترى تأثيرها يصل عشرات السنوات اللاحقة وتغيّر مصير شعوبٍ بأكملها. ومن الطبيعي أنّ مسائلَ كهذه تتطلّب تدقيقًا أكثر كي تبتني أحكامنا فيها على بصيرة أعمق.

وفي المحصّلة، كلّنا يعلم إجمالًا ضرورة إعمال العقل والاستفادة من القرائن في العصمة عن الأحكام السطحيّة، وأنّ مجرّد احتمال كون مسألة ما أعمقَ مما تبدو، يُملي على الإنسان أن يَبحثها بشكل أعمق. ولكن على الرغم من هذا، يطرح السؤال التالي: «هل إنّ أصحاب الفكر العميق والفطنة الكبيرة والتجربة الطويلة، حتمًا ستكون أحكامهم مبتنيةً على البصيرة؟؟»، بمعنى أنّه هل يمكن القول: «إنّ الأذكى والأكثر تجربةً تتميّز أحكامه ببصيرة أوسع، بخلاف الأقلّ ذكاءً وتجربة حيث تفتقر أحكامه إلى البصيرة؟».

من أجل توضيح هذا الأمر، نرى من المناسب أن نلقي نظرة على حوادث صدر الإسلام. فبعد بعثة النبي الأكرم ﷺ بالرسالة، بقي ﷺ بين الناس لثلاثةٍ وعشرين عامًا، وبعد ارتحاله حكم الخلفاء الثلاثة لمدة خمسة وعشرين عامًا. وما مرّت خمس سنوات أُخر من عمر الإسلام، حتّى شهدت الدولة الإسلاميّة حروبًا داخليّة كثيرة، والتي يمكن اعتبار أهمّها بلحاظ الحجم معركة صفّين، والتي امتازت بطول وقتها وكثرة خسائرها.

وقد كان أحد أطراف المواجهة في هذه الحرب شخصٌ كان يحسبه الجميع شديدَ الدهاء والذكاء، وهو معاوية بن أبي سفيان، إلى درجة أن اعتبره البعض أدهى من أمير المؤمنين علي عليه السلام وأنّ لديه من فن السياسة والتدبير والإدارة ما ليس لدى عليّ عليه السلام؛ وإلى هذا الأمر أشار أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له حيث قال: «وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ»[1].

ومـن هنا يُعلم أنّ دعـوى كـون معاية أذكـى وأدهــى من أمير المؤمنين عليه السلام كانت مطروحة في العالم الإسلامي في تلك الآونة، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام صرّح في مقام الدفاع عن نفسه أنّ معاوية ليس أذكى ولا أدهى، ولكنّني أتّبع أحكام الدين وألتزم بها فلا أفعل ما يمليه عليّ هواي بل ما يريده منّي الله تعالى، أمّا الطرف المقابل فليس لديه هذا الالتزام فيتوسّل بأيّ وسيلة في سبيل تحقيق أغراضه، ولذلك يُتوّهم أنّ سياسته أفضل من سياستي. ومن هنا، فهل يمكن اعتبار معاوية أكثرَ بصيرةً من أمير المؤمنين عليه السلام أم أنّ القصّة تكمن في أمر آخر؟؟

[بالطبع لا][2]، إذ يُستفاد من بعض خطب **نهج البلاغة** أنّ هزيمة معاوية في المعركة كانت من الناحية العسكرية حتميّة، فقد كان مالك الأشتر يبارز بشجاعة وبطولة وشهامة جعلت جيش معاوية أمام هزيمة قطعيّة. ممّا دفع معاوية للقيام بمشاوراته مع عمرو بن العاص كي ينتشله من هزيمته القطعية، وتمخّض عن هذه المشاورات الدعوة إلى المصالحة والتحكيم، فلجؤوا إلى حيلة رفع المصاحف فوق الرماح في حركةٍ أرادوا منها إيهام جيش أمير المؤمنين عليه السلام بأنّهم أتباع

(١) السريف الرصي، **نهج البلاغة**، الحطبة ٢٠٠.

(٢) ما وُصع بين معقوفَس هو مں إصافات المرجم.

القرآن الكريم ويأتمرون بأمره. وما إن عرض جيش معاوية دعوتهم هذه حتّى ارتفعت أصـواتُ أصحاب النظرة السطحية في جيش أمير المؤمنين عليه السلام، والذين كانوا قد سئموا من طول فترة الحرب، قائلين: «لقد جئنا لحربهم من أجل الامتثال لأوامـر القرآن الكريم، وها هم حاضرون لذلك، فهل هناك أفضل من هذا؟؟»، فأغمدوا السيوف، وبدأ تقهقر جيش عليّ عليه السلام، وكلّما دعاهم أمير المؤمنين قائلًا: «إنّني أنا القرآن الناطق، وما دعوتهم هذه إلا خدعة»، لم يقبلوا منه، وما كان جوابهم إلّا أن قالوا: «إنّنا لا نحارب القرآن».

تعتبر هذه الحادثة إحدى نماذج انعدام البصيرة، ولذلك لا بدّ من تحليلها جيّدًا كي نصل إلى منشأ مشكلة عدم البصيرة، لئلّا تتكرّر مثل هذه الحوادث معنا في هذا الزمن فيسهل خداعنا. ويجب أن نكتشف السبب الذي جعل الأمور تصل إلى درجة أن يرجّح جيش أمير المؤمنين عليه السلام، والذي من المفترض أن يكون مطيعًا له، طرحَ عمرو بن العاص على أوامر عليّ عليه السلام، مع أنّ عليًا عليه السلام كان يتمتّع بشخصيّة عظيمة، فهو بالإضافة إلى مقام العصمة كان ذا علمٍ لا نظير له، وإدراكٍ للحقيقة أفضلَ من إدراك كلّ مَن سواه، وقد أوكلتً إليه لسنوات طويلة قيادة جيوش المسلمين في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

من أجل فهم هذه الحادثة، لا بدّ من الالتفات إلى نقطة ترتبط بعلم النفس. فقد أُثبت في علم النفس التجريبي أنّ من شأن ميول الإنسان أن تؤثّر حتّى في إدراكاته الحسيّة، فعلى سبيل المثال، من الممكن أن لا نرى أو نسمع بعض الأشياء التي لا نحبّها. هذا فيما يتعلّق بالإدراكات الحسيّة. وكذلك حين يفكّر الإنسان، فإنّه عادةً ما يبحث عن الأفكار التي يحبّها، ويبقى مترقّبًا كي يصل عن طريق هذه الأفكار إلى النتيجة التي تصبّ

في مصلحته ومنفعته، ويأبى أن يُعمِل فكرَه في القضايا التي لا يرجو منها نفعًا ولا مكسبًا. وعليه فإنه يُستفاد من التجارب العلميّة في علم النفس أنّ الإنسانَ لا يُعملُ فكرَه في أمور لا يهواها. ومن الواضح أيضًا أنّ البصيرة تابعةٌ للفكر السليم، وأنّ امتلاكنا للفكر السليم والعميق هو الكفيل بجعلنا من أهل البصيرة. إلّا أنّ الكلام يقع في أنّه ليس كلَّ إنسانٍ يرغب بالتفكير في بعض الأمور تفكيرًا صحيحًا، ومن هنا نرى القرآن الكريم في بعض الآيات يعاتب بعض الناس لعدم تفكيرهم، إذ يستفادُ من الآية الكريمة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1] أنّ الناس إمّا أنّهم أوصَدوا قلوبَهم بأقفالٍ تحولُ دونَ فهمهم القرآنَ الكريم، وإمّا أنّهم لا يتدبّرون آياته. وفي الكثير من آياته، يذمّ القرآن أولئك الذين لا يُعملون عقولَهم فيقول: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾[2]، و﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[3]، و﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[4]، و﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾[5].

وسببُ ذكرِ القرآن الكريم لهذه النكات أنّ البشرَ بطبيعتهم يفتقرونَ إلى الدافع للتفكير في كلّ الأمـور، فيُعملون فكرَهم فقط في الأمور التي يحبّونها ويأملون للوصول إلى منافع من خلالها. ولهذا ترى بعض الأشخاص يؤمنون بنتيجة معيّنة ومن بعدها يبدؤون في التفكير. أي إنّهم منذ البداية، وبمجرّد تصوّرهم للمسألة، يجيبون في قرارة أنفسهم

---

(١) سورة محمد، الآية ٢٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ٤٤؛ سورة البقرة، الآية ٧٦؛ سورة آل عمران، الآية ٦٥؛ سورة الأنعام، الآية ٣٢؛ سورة الأعراف، الآية ١٦٩؛ سورة يونس، الآية ١٦؛ سورة هود، الآية ٥١؛ سورة يوسف، الآية ١٠٩؛ سورة الأنبياء، الآية ١٠؛ سورة الأنبياء، الآية ٦٧؛ سورة المؤمنون، الآية ٨٠؛ سورة القصص، الآية ٦٠؛ سورة الصافات، الآية ١٣٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية ٥٠.

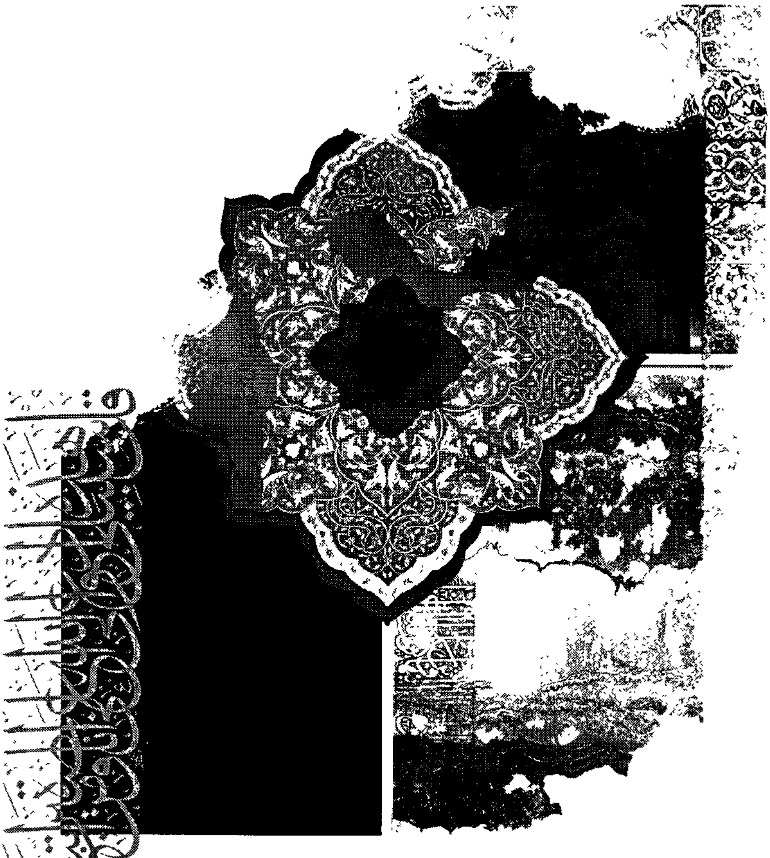
(٥) سورة النساء، الآية ٨٢.

ويتبّنون رأيًا ما، ومن بعدها يبدؤون عمليّة البحث عن دليل لهذه النتيجة.

ومن النماذج على مثل هذا النوع من البشر، أولئك الذين يفسّرون القرآن برأيهم، والحال أنّ الروايات تذمّ بشدّة أصحاب التفسير بالرأي. وقد جاء في الرواية المشهورة التي نقلها الشيعة والسنّة: «مَنْ فَسَّرَ القرآنَ بِرَأيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١]. والمُراد من التفسير بالرأي أن ينسب الشخص للقرآن الكريم ما تهواه نفسه، الأمر الذي له مصاديق كثيرة منذ صدر الإسلام إلى أيامنا هذه. ويشكو أمير المؤمنين عليه السلام في **نهج البلاغة** من أولئك الذي يفسّرون القرآن بالرأي، ويحمّلونه ما تهواه أنفسهم. وإنّ هؤلاء الأشخاص من الممكن أن يكونوا من أصحاب الفكر والدراية والعقل، بَيد أنّهم ينظّمون مقدّماتهم ويوظّفون القرائن بشكلٍ يجعل النتيجة على طبق ميولهم.

---

(١) ابن أبي جمهور الأحسائي، **عوالي اللئالي**، الجزء ٤، الصفحة ١٠٤.



المصادر

١. **القرآن الكريم.**

٢. الشريف الرضي، **نهج البلاغة.**

٣. الأحسائي، ابن أبي جمهور، **عوالي اللئالي**، تحقيق الحاج آقا مجتبي العراقي، سيد الشهداء، قم.

٤. البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، **المحاسن**، تصحيح وتعليق السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، طهران.

٥. الحراني، ابن شعبة، **تحف العقول**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.

٦. الخميني، السيد روح الله قدس سره، **صحيفة الإمام**، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره، طهران.

٧. ابن بابويه القمي (الشيخ الصدوق)، محمد بن علي بن حسن، **الأمالي**، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم.

٨. ــــــــــ **عيون أخبار الرضا** عليه السلام، تصحيح وتعليق وتقديم الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٩. ـــــــــــــــ، **كمال الدين وتمام النعمة**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، قم.

١٠.الكليني، محمد بن يعقوب، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية.